

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام

نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد

ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»

وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:

ص ب 640 ـ 16008 الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:

جوال: 08 53 62 (0661)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَاب].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد...



النَّصر منوط بإصلاح النُّفوس

التحرير

إنَّ حادث غزَّة الأليم لم يكن ليمرَّ دون أن يكون للحماسة نصيبها، وللعواطف الجيَّاشة حظُّها منه، كما كان للألسن والأقلام سهمٌ كبير، فأنصفَ بعضهم، وقصَّر بعضهم، واعتدى آخرون، وإنَّ من الظُّلم المكشوف أن تثمَّن مواقف أُناس هم للكفر أقرب منهم للإيمان، وينظر بعين الشَّزر لموقف السَّلفيِّين الَّذين لا يصدرون إلاَّ عن شريعة ربِّ العالمين، مستضيئين بكلام العلماء الموثوقين، إذ موقفهم لا يخضع للحماسات والانفعالات، ولا لضغوط العامَّة والغوغائيِّين ولا للسِّياسات، فلم يرتضِ موقفَهم بعضُ من جار عليهم بقلمه، إذ لَمَّا وصل إلى موقفهم بعد سَرْدِه لمواقف غيرهم استخفَّ بقولهم ورأيهم، وانتقصه من طرفٍ خفيٍّ؛ وزعم أنَّ موقفهم شكَّل صدمةً لبعض الشَّرائح الجماهيريَّة؛ لأنَّهم في ظنِّه لم يتفاعلوا مع الحدث بإيجابيَّةٍ كافيةٍ، فهم لم يشاركوا في المظاهرات العارمة ولا في المسيرات الجارفة، ولم يحضروا التَّجمُّعات الحافلة، ولم يرفعوا اللاَّفتات المندِّدة، ولا الشِّعارات الرَّنَّانة المتَّعدِّدة، فهم ـ على حسبه ـ لم يبرحوا مكانهم، وردَّدوا علينا ما نسمعه منهم في كلِّ نازلة وواقعة، بل في كلِّ مناسبة مِنْ سلم أو حَرْبٍ، وهو أنَّ ما حلَّ بنا سببه ذنوبنا وتقصيرنا وتفريطنا في أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ المخرج مِنْ كلِّ ضائقة إنَّما هو في العودة إلى الله والتَّوبة والإنابة وحسن القصد وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ؛ وكأنَّ الكاتب يريد أن يقول هذا عهدناه منكم وسمعناه كثيرًا وكثيرًا، فلم تأتوا بجديد ولم تشفوا غليلَ هذه الحشود الغاضبة، وهذه السُّيول البشريَّة الثَّائرة، وكما جاء في تعبيره بالحرف: «في الأغلب الأعمِّ الاتِّجاه التَّقليدي الَّذي تتحدَّد مواقفه، كما في حالات مماثلة انطلاقًا من قراءة للمشهد، مفادها أنَّ كلَّ ما يحلُّ بالمسلمين من نكبات مَرَدُّهُ إلى تخلِّيهم عن النَّهج الإسلامي القويم، والضّعف الَّذي أصاب عقيدتهم وابتعادهم عن نهج السَّلف، ومن المنطقي وفق هذه القراءة أن يكون معكوس هذه العِلَل هو أساس كلِّ علاجٍ لواقع الأمَّة المتردِّي بشكل عامٍّ، وهو المدخل للتَّعامل مع هذه الأحداث».

وقال آخر: «وبشكلٍ عام يمكن القول رغم الفروقات الطَّفيفة بين مكوِّنات الاتِّجاه السَّلفي التَّقليدي تركزَ خطابه حول أنَّ المدخل

الرَّئيسي لنصرة غزَّة يقوم على إصلاح النَّفس، والتَّخلي عن ارتكاب المعاصي والتَّوجُّه إلى الله بالدُّعاء لنصرة الشَّعب الفلسطيني».

فنقول: وإنْ لم يَرُقْكُم هذا الموقف القويم، وهذا الجواب السَّديد من السَّلفيِّين؛ فارجعوا إلى كُتُبِ أهل العلم لِتَقِفُوا على حقيقةٍ مُهِمَّة غاية في الأهميَّة، وهي:

أنَّ من المقرَّرات في عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة حسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ في جميع الأحوال، والعود على النَّفس بإساءة الظَّنِّ، وعدم الاغترار بما يكون عليه العبد من الصَّلاح في الأقوال والأفعال، لما قد يشوب ذلك من مفسدات في الباطن لا تظهر للعيان، أو ما يؤول إليه الحال في الختام، فالأولى بالعبد أن يشهد على نفسه بالتَّقصير في جميع الحالات، وأن يديم سؤالَ الله تعالى العفوَ والتَّجاوز عن الخطايا والزَّلاَّت، وعدم المؤاخذة بالذُّنوب والسَّيِّئات، وحسن العواقب والمآلات، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «رؤية التَّقصير، وشهادة التَّأخير من نعمة الله على عبده المؤمن، الَّتي يسْتوجب بها التَّقدُّم، ويتمّ له بها النِّعمة، ويُكفى بها مؤنة شيطانه المزيِّن له سوء عمله، ومؤنة نفسه الَّتي تحبُّ أن تُحمد بما لم تفعل، وتفرح بما أتتْ» [«مجموع الفتاوى» 352/6].

وعليه؛ فإنَّ المصائب الَّتي تحلُّ بنا إنْ على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدُّول، فلتقصير من عند أنفسنا، وهذا يجب أن يُفهم على أنَّه معادلةٌ صحيحةٌ سليمةٌ لا ينقضها شيء، وإلاَّ فما معنى أنْ يُطلق الله عَزَّوَجَلَّ القول في كتابه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى]؛ «فما حصل للعبد حال مكروهة قطّ إلاَّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر» [«مدارج السَّالكين» (424/1)]؛ وقال تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: 79]، وهذا خطاب له ﷺ، وجميع الأمَّة داخلون في ذلك بطريق الأولى، كما يقول العلماء المحقِّقون.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبيَّن أنَّ النِّعم والمصائب من عند الله؛ فالنِّعمة من الله ابتداءً، والمصيبة بسبب من نفس الإنسان، وهي معاصيه» [«منهاج السُّنَّة» (147/3)].

فمصيبة تسلُّط اليهود والنَّصارى اليوم على المسلمين ليس سببه قوَّتهم فحسب، بل بما آلت إليه أنفس المسلمين من حبٍّ للدُّنيا وركونٍ إلى ملذَّاتها وشهواتها، وعزوفٍ عن طلب الآخرة وطلب مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، وتفريطٍ في أداء الواجبات ظاهرًا وباطنًا، وتعدٍّ صارخ على حدود الله وشرعه ظاهرًا وباطنًا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: 165] مع أنَّ المخاطَب يومئذ في غزوة أحدٍ هم خيار النَّاس وصفوة الخلق رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأعلَمَهم أنَّ سببَ المُصيبة من عند أنفسهم ليحذروا.

لذا كان لزامًا أن تعود الأمَّة على نفسها

باللاَّئمة وتوقظ هذا الشُّعور في جميع أفرادها، لينظر كلُّ فردٍ في حاله ويتفقَّد نفسه؛ لأنَّك لو تأمَّلت ما في هذه الآيات الكريمات لوجدتها تردُّ سبب المصائب والانهزامات إلى «الأنفس»، أي أنَّ السَّبب داخليٌّ قبل أن يكون خارجيًّا، فإذا كان الأمر كذلك عُلم أنَّ مدار الأمر على «النَّفس» البشريَّة، وهي حجر الزَّاوية ـ كما يقال اليوم ـ في عمليَّة الإصلاح، أو في أيِّ محاولة للخروج من مصيبة الذُّلِّ والهوان الَّذي نعانيه، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك صريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

هذا التَّغيير، أي تغيير الأوضاع، بأن نغيِّر المعصية بالطَّاعة، والكفر بالشُّكر، وأسباب سخط الله علينا بأسباب رضاه، هو الإصلاح المطلوب، حتَّى يُغيِّر الله علينا العقوبة بالعافية، وتسليط الأعداء بالنَّصر، والذُّلَّ بالعزِّ.

فيجب أن تتوجَّه العناية إلى إصلاح النُّفوس وتهذيبها وتنقيتها من شوائبها وشرورها، حتَّى تسعد الأمَّة بأفرادٍ صالحين ومتَّصفين بالصَّلاح الَّذي أراده الله ورسوله ﷺ، لا بالصَّلاح المستمد من نظريَّات الرِّجال، ومن أفكار الغرب وزبالة أذهان البشر، فالصَّالح من الرِّجال والنِّساء في لسان الشَّرع قرآنًا وسُنَّةً ـ كما قال الشَّيخ ابن باديس رحمه الله: «هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقَّة، وزكت نفسُه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعمالُه وطابت أقوالُه، فكان مصدرَ خيرٍ ونفعٍ لنفسه وللنَّاس، استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصَّالحين حيثما جاء» [«تفسير ابن باديس» (ص207)].

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وجماع الصَّلاح للآدميِّين هو طاعة الله ورسوله، وهو فعل ما ينفعهم، وترك ما يضرُّهم؛ والفساد بالعكس؛ فصلاح الشَّيء هو حصول كماله الَّذي به تحصل سعادته، وفساده بالعكس؛ والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم الَّذي تنتهي إليه محبَّتهم وإرادتهم، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النِّهايات» [«درء تعارض العقل والنقل» (169/5)].

ومن أراد تفصيلاً ومزيدَ توضيحٍ لصفات الصَّلاح وأوصاف الصَّالحين؛ فليرجع إلى القرآن، فإنَّ فيه البيان الكافي والدَّواء الشَّافي، من ذلك قول الله جلَّ ذكره: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران].

ويجمع ذلك الإيمان والعمل الصَّالح، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت]، فالإيمان الصَّحيح والعمل الصَّالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنَّه من الصَّالحين من عباد الله تعالى.

فلو انتبه كلُّ مَنْ أراد النَّصيحة لهذه الأمَّة وسعى في خيرها لسطَّر عمله على هذا الأساس

وجعل دعوته على هذا المنوال، وصدق القول أمام أفراد الأمَّة بأنَّ انهزامنا وضعفنا وتمكُّن الأعداء منَّا مردُّه إلى أنفسنا، فلنصلحها وليعمل كلُّ فردٍ منَّا على البلوغ بنفسه إلى درجة من الصَّلاح تجعله معتزًّا بدينه وبربِّه عزَّ وجلَّ وبنبيِّه ﷺ، لا همَّ له ولا غاية له إلاَّ مرضاة الله عزَّ وجلَّ؛ وإنَّنا إذا بلغنا بأنفسنا إلى هذه المراتب تحقَّق لنا وعد الله الَّذي لا يتأخَّر إذا وجدت أسبابه، ورفعت عنَّا الهزيمة والذِّلة، وخلفها النَّصر والسَّعادة، وعاد إلينا ما سلب منَّا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء].

فلا تُنصر الأمَّة إلاَّ بمن سلِمَت عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم من الشِّرك والبدع، وقلَّت معاصيهم وكثرت طاعاتهم، وليس تُنصر أبدًا بالطَّائفين والمتمسِّحين بالأضرحة والقبور، ولا بالمستهترين بسنَّة سيِّد المرسلين ﷺ، ولا بتاركي الصَّلاة، ومانعي الزَّكاة، وآكلي الرِّبا والرِّشوة ونحو هؤلاء من أتباع الأهواء والشَّهوات، ممَّن يسهل عليهم مخالفة أمر الله في أحكامه، وترك سنَّة نبيِّه ﷺ، لكنَّهم في نفس الوقت يرفعون شعارَ الجهاد، ويزعمون أنَّهم ناصرون لإخوانِهم، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، فهؤلاء في حقيقة أمرهم لا يزيدون الأمَّة إلاَّ وهنًا على وهن، ويُوَسِّعون على الرَّاقع الخَرق؛ وهذا ما لا يريدُ أن يسمعَه كثيرٌ من المتحمِّسين والحركيِّين الَّذين قلَّ نصيبهم من العلم بالكتاب والسُّنَّة، ويلوي عنقَه معرِضًا، ويعدُّه ضربًا من التَّخذيل والتَّثبيط للهمم والعزائم، وعدم فقهٍ للواقع؛ هذا الواقع الَّذي أسلموا أمرهم له، فصاروا طوعَ أمر الواقع لا طوعَ أمر الشَّارع، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله؛ وامتطوا مناهج مستحدَثة ومسالكَ مبتدَعَة تستمدُّ موادَّها وتصوُّراتِها من بقايا فكرِ فِرقٍ وطوائفَ انحرفت عن أهل الحديث والسُّنَّة، ولم يلتفتوا إلى طريقة الأنبياء عليهم السلام في الإصلاح والتَّغيير؛ لأنَّها ـ في زعمهم ـ لا تتماشى وروح العصر والأساليب الحضارية، وما ذلك إلاَّ لأنَّهم استطالوا الطَّريق واستعظموا المشقَّة، واستعجلوا الثَّمرة، ورأوا أنَّ الإصلاح بهذه الطُّرق المحدَثة أسهل على النُّفوس، وأيسر على الرَّئيس والمرؤوس؛ ألا فليعلم هؤلاء أن تنكُّبَهم عن منهج رسول الله ﷺ يستوجبُ العقوبةَ، ولا تجني الأمَّة منه إلاَّ تأخُّرا عن النَّصْر، وتعطُّلاً عن الظَّفَر، واسمع إلى كلام العالم الرَّبَّاني الَّذي فقه الكتاب والسُّنَّة وفقِه واقعَه المرير، وعرف من أينَ وكيف يبدأُ الإصلاح الشَّيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وهو يقول:

«فإنَّ ممَّا «فإنَّ ممَّا نعلمُه، ولا يخفَى على غيرنا أنَّ القائدَ الَّذي يقول للأمَّة: (إنَّكِ مظلومةٌ في حقوقِكِ، وإنَّني أريدُ إيصالَكِ إليها)، يجدُ منها ما لا يجدُ مَنْ يقول لها: (إنَّكِ ضالَّةٌ عن أصولِ دينِك، وإنَّني أريدُ هِدايَتَك)، فذلك تُلبِّيه



كلُّها، وهذا يقاومُه مُعظمُها أو شطرُها...»

[«الصِّراط السَّوي»: (عدد15/1352هـ)].

وإذا لم يكن سعينا في هذا الاتِّجاه، ولم نعمل لتحقيق ما أراده الله منَّا وابتغاه، من تزكية النُّفوس وإصلاحها، وجعل أعمالنا كلّها في رضاه، ووفق سنَّة نبيِّه ﷺ ومصطفاه، فإنَّنا سنجد أنفسنا لا محالة في الجهة الأخرى المقابلة للإصلاح وهو الإفساد، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، قال الشَّيخ العلاَّمة ابن عثيمين رحمه الله:

«قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ من قِبَل المصلِحين، ومن ذلك الوقوف ضدَّ دعوةِ أهل العلم، والوقوف ضدَّ دعوة السَّلَف، والوقوف ضدَّ من ينادي بأن يكون الحُكم بما في كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فَإِنَّ اللهَ أَصْلَحَ الأَرْضَ بِرَسُولِهِ ﷺ وَدِينِهِ، وَبِالأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَى عَنْ فَسَادِهَا بِالشِّرْكِ بِهِ ومخَالَفَةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ العَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلاحٍ فِي الأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ؛ **وَكُلُّ شَرٍّ فِي العَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغيرِ ذلكَ؛ فَسَبَبُهُ مخالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعوةُ إلى غيرِ اللهِ، وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وجدَ هذَا الأمرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا وَخُصُوصًا، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ**» [«مجموع الفتاوى» (25/15)]، ولنفاسة هذا الكلام نقله ابن القيم رحمه الله في كتابه «بدائع الفوائد» بحروفه.

وكم هو جدير بنا نحن المسلمين اليوم أن نحتفَّ بهذا الكلام العظيم من هذا الإمام العالم النحرير، نحن الذين نعاني الفتن والبلايا والرزايا، في جميع أطراف بلادنا الإسلامية، بسبب مخالفة أمر رسول الله ﷺ، والدَّعوة إلى غير الله وهو الشِّرك.

فيحسُن بنا ألا نكون أبناء أوهام وخيالات، بل أتباع ما جاء في الآيات المحكمات، التي فيها ضمان النصر والوعد بالتمكين لمن أتى بالإيمان وعمل الصالحات، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة النور].

فإذا قصَّرنا في طاعة الرسول ﷺ، ولم نجعل دعوة التوحيد شعارنا ودثارنا، ولم نعمل على إصلاح نفوس أفراد الأمة بجميع أطيافها، فلا ننتظر نصرا ولا رفعة ولا تمكينا، بل لن نزداد إلا ضعة وذلة وتقهقرا، ولن نسترد مغصوبا، ولن نسترجع مسلوبا، هذا هو الحق ليس به خفاء، وهذا هو الواقع ليس فيه مراء، ومن ابتغى دواء لهذه الأدواء، فعليه بشريعة الله الغراء، ولله الأمر في البدء والانتهاء.

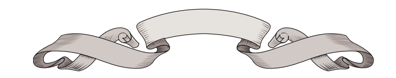
سُورَةُ الكَوْثَرِ

فـوائـد وعــبـــر

عمر حمرون
أستاذ بمعهد القراءات بالجزائر العاصمة

□□□ يقول الله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾



«سورة الكوثر» هي أقصر سورة في القرآن الكريم، إلاَّ أنَّها جليلةُ القَدْرِ، عظيمةُ النَّفع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيِّنًا مكانَتَها ومنزلتَها: «سورة الكوثر، ما أجلَّها من سورة! وأغزر فوائدها على اختصارها»[1].

افتتحها الله ـ جلَّ وعلا ـ ببيان تفضُّله على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ بإعطائه الكوثر.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد بـ: «الكوثر»، فقيل: هو الخيرُ الكثير؛ مِنَ القرآن، والحكمة، والنُّبوَّة، وغير ذلك، وهو قول ابن عبَّاس، ومجاهد، وعِكْرمة، وغيرهم.

ووجه ذلك أن «الكوثر»: فوعل من الكَثْرَةِ، وهو المفرط الكثرة.

وفي لسان العرب: «الكوثر من الرِّجال»: السَّيِّد، الكثير الخير، المعطاء.

وقيل: المراد بـ «الكوثر»: نهرٌ في الجنَّة أُعْطِيَه نبيُّنا ﷺ.

وقد ثبت هذا التَّفسير مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً، فرفع رأسه متبسمًا، إمَّا قال لهم، وإمَّا قالوا له: لم ضحكت؟

فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّه أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**»، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ حتَّى ختمها، فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ**

(1) «مجموع الفتاوى» (16/526).

عَدَد الكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ لي: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[2].

وجاء في «الصَّحيحين» عن أنس رضي الله عنه - أيضًا - قال: «لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ ﷺ إلى السَّماء، قال: **أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ**»[3].

والظَّاهر أنَّه لا منافاة بين التَّفسيرين، فيكون معنى الآية: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أعطاه ربُّه عزَّ وجلَّ خيرًا كثيرًا في الدُّنيا والآخرة، ومِنْ ذلك الخيرِ: هذا النَّهر في الجنَّة.

ولذلك لَمَّا حدَّث سعيد بنُ جُبَيْر أبا بِشْرٍ بتفسير ابن عبَّاس للآية، وأنَّ المراد بها الخيرُ الكثير، قال أبو بشر: «قلت لسعيد بن جبير: فإنَّ ناسًا يزعمون أنَّه نهر في الجنَّة؟ فقال سعيد: النَّهر الَّذي في الجنَّة من الخير الَّذي أعطاه الله إيَّاه»[4].

قال ابن كثير: «وهذا التَّفسير يعمُّ النَّهر وغيرَه؛ لأنَّ الكوثر مِنَ الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النَّهر»[5].

❁ إذا عُلِمَ ذلك، فَلْنَعُدْ لِذِكْرِ شيءٍ مِنْ فوائدِ هذه الآيات البيِّنات:

○ ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾: دليلٌ على عِظَمِ منزلةِ النَّبيِّ ﷺ، ورفعةِ مكانته، حيث خصَّه الله تعالى بهذا العطاء الكثير.

وتأمَّل كيف جمع الله تعالى ضميرَ المتكلِّم «إنَّا» ولم يقل: «إنِّي» للإشارة إلى عِظَم العطاء وشرفِه حيث أسنده إلى مُعْطٍ كبير.

وعليه فيكون المعنى: أعطيتك ما لا غاية لكثرته من خَيْر الدَّاريْن الَّذي لم يُعْطه أحدٌ غيرك، ومعطي ذلك كلِّه أنا إلهُ العالمين، فاجتمعت لك الغِبطتان السَّنيَّتان: إصابة أشرف عطاءٍ وأوفره، مِنْ أكرمِ مُعطٍ وأعظم مُنعم.

وممَّا ينبغي أنْ يُذكر في هذا المقام ولا يُنسى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ما كان لينالَ هذه المنزلة العالية والمكانة الرَّفيعة؛ حتَّى أدَّى ما عليه ووفَّى، فجازاه ربُّه جلَّ وعلا الجزاء الأوفى.

فعُلم من ذلك أنَّ المعالي لا تُنال بمجرَّد الأماني، وإنَّما بالعمل والتَّفاني.

وما أحسن قول الشَّاعر:

يغوص البحر من طلب اللآلي
ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم المجد ثم تنـــــام ليلا
لقد أطمعت نفسك بالمحال

وأحسنُ منه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ۝١٩﴾ [الإسراء: 19].

وإخباره ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه السَّابق

(2) «المسند» (102/3) وسنده صحيح، وقد رواه مسلم (400) بلفظ مقارب.
(3) البخاري (4346) ومسلم (303).
(4) أخرجه البخاري (4966).
(5) «تفسير ابن كثير» (935/4).

بأنَّ نهر الكوثر سَيَرِدُهُ أقوامٌ من أمَّته يوم القيامة، ويحرم منه آخرون بسبب إحداثهم؛ دليلٌ على أنَّ لأتباع النَّبيِّ المصطفى ﷺ نصيبًا من هذا العطاء المذكور في هذه الآية، وأنَّ المرء بقدر اقتدائه برسول الله ﷺ واتِّباعه لسنَّته ينال حظَّه من هذا الخير، كما أنَّه يفوته من الخير بقدر ابتداعه ومخالفته للسُّنَّة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ دلَّ على أنَّه أعطاه الخير كلَّه كاملاً موفَّرًا، وإنْ نال منه بعض أمَّته شيئًا كان ذلك الَّذي ناله ببركة اتِّباعه، والاقتداء به»[6].

○ ولما ذكر الله تعالى منَّته على نبيِّه ﷺ، أمره بشكرها؛ فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، وفي ذلك عدَّة فوائد:

☯ منها وجوب شكر المنْعِم على نِعَمِه، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

☯ ومنها: أنَّ الشُّكر لا يكون بمجرَّد التَّلفُّظ باللِّسان، بل لابدَّ أن ينضمَّ إليه عمل الجوارح بطاعة الله تعالى، والتَّقرُّب إليه بأصناف الطَّاعات والقربات؛ لأنَّ معنى الآية: تقرَّبْ لربِّك بالصَّلاة والنَّحر، حتَّى تكون شاكرًا لِمَا مَنَنْتُ به عليك.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الشُّكر لا يتمُّ إلاَّ بالعمل الصَّالح؛ قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: وقلنا لهم: اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدِّين والدُّنيا...، وفيه دلالة على أنَّ الشُّكر يكون بالفعل، كما يكون بالقول وبالنِّيَّة، كما قال الشَّاعر:

أفادتـكم النَّعمـاء منِّي ثلاثـةً
يدي ولساني والضَّمير المُحَجَّبا»[7].

قلت: ولذلك اقترن الشُّكر بالعبادة في غير ما آيةٍ من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١١٤﴾ [النحل].

☯ ومن فوائد الآية أيضًا: أنَّ الصَّلاة والنَّحر (الذَّبح) من أفضل القربات الَّتي يُتقرَّب بها إلى الله جلَّ وعلا، ولذلك خصَّهما الله تعالى بالذِّكر؛ فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

قال الشَّيخ السَّعدي رحمه الله: «خصَّ هاتين العبادتين بالذِّكر؛ لأنَّهما من أفضل العبادات، وأجلِّ القربات»[8].

والصَّلاة كما بيَّن شيخ الإسلام رحمه الله هي أجلُّ العبادات البدنيَّة، والنَّحرُ أجلُّ العبادات الماليَّة[9].

ولذلك كان نبيُّنا ﷺ يُكثر منهما.

(6) «المجموع» (16/530).

(7) «تفسير ابن كثير» (3/872).

(8) «تفسير السَّعدي» (7/679).

(9) «المجموع» (16/532).

فقد كان ﷺ يقوم من اللَّيل حتَّى تتفطَّر قدماه، فتقول له عائشة رضي الله عنها: أتفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟!

فيجيبها قائلاً: «**أفَلاَ أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(10).

كما كان ﷺ كثيرَ النَّحر، حيثُ نَحَرَ في حَجَّة الوداع بيَدِهِ الشَّريفة ثلاثًا وستِّين بَدَنَة(11).

◉ ومن فوائد الآية أيضًا: وجوبُ إخلاص العبادة للّه وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾، أي: اعبدْ ربَّك، وصلِّ له وحده، مراغمًا لقومك الَّذين يعبدون غير اللّه، وانحرْ لوجهه وباسمه وحده، مخالفًا لهم في النَّحر للأوثان.

◉ وفي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أنَّ الرَّبَّ الخالقَ هو المستحقُّ لأَنْ يُعبد وحده لا شريك له، فهو استدلالٌ بربوبيَّته على استحقاقه للألوهيَّة والعبادة.

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة].

◉ ومن فوائد هذه الآيات أيضًا: أنَّ مَنْ فاته شيءٌ من متاع الدُّنيا، فلا ينبغي له أنْ يتأسَّف على فواته ما دام مشتغلاً بعبادة اللّه وبما يقرِّبه إلى اللّه عزَّ وجلَّ، وأنَّ اللّه تعالى ببركةِ عبادته تلك سَيُعَوِّضه خيرًا مِمَّا فاته، وسيعطيه الخير الكثير في الدُّنيا والآخرة(12).

فقدْ ذُكِرَ في سبب نزول هذه الآيات أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان كُلَّمَا وُلد له ابنٌ ماتَ، فكان كفَّارُ قريش يُعَيِّرُونَه بذلك، ويقولون عنه: أبتر، أي: أقطع، لا نَسْلَ له، ولا ذِكْر، فنزلت هذه السُّورة.

فتكون هذه الآيات نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة طه].

❍ وقوله تعالى في آخر هذه السُّورة: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي: إنَّ مبغضك وذامَّك، ومنتقصَك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾، أي: المقطوع من كلِّ خيرٍ، فهو مقطوعُ العمل، ومقطوع الذِّكر.

وأمَّا نَبيُّنا محمَّد ﷺ فقد رفع اللّه تعالى ذكره، وله من كثرة الأنصار والأتباع ما لا يحصيهم إلاَّ اللّه تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [سورة الشرح].

قال الشَّيخ السَّعدي: «﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ أي: أعْلَيْنَا قدرَك، وجعلنا لك الثَّناء الحسن العالي،

(10) رواه البخاري (1078) ومسلم (2820).

(11) رواه مسلم (1218).

(12) انظر لهذه الفائدة: «المجموع» لشيخ الإسلام (16/532 ـ 533).

الّذي لم يصل إليه أحدٌ من الخلق.

فلا يُذكر اللّهُ إلاَّ ذُكِرَ معه رسولُه ﷺ، كما في الدُّخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخُطَب، وغير ذلك من الأمور الّتي أعْلَى اللّهُ بها ذكرَ رسوله محمَّد ﷺ.

وله في قلوب أمَّته مِنَ المحبَّة والإجلال والتَّعظيم ما ليس لأحد غيره بعد اللّه تعالى.

فجزاه اللّه عن أمَّته، أفضل ما جزى نبيًّا عن أمَّته»[13] اهـ.

قلت: فهل يُعقل أنْ يوصف بـ «الأبتر» مَنْ هذه بعضُ أوصافه؟!

وهل يُتصوَّر أن يُنعت بـ «الأبتر» مَنْ يُنادى باسمه على رؤوس المآذن خمس مرَّات في اليوم واللَّيلة، إلى أن يرث اللّهُ تعالى الأرض ومن عليها؟!

حتَّى قال الشَّاعر:

لا يصحُّ الأذان في الفرض إلا
باسمه العذب في الفم المرضي

فَقُتِلَ الخَرَّاصون الكذَّابون، وصدق اللّه القائل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

● ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

- وجوب الإيمان بمحمَّد ﷺ، ومحبَّته واتِّباعه.

- اعتقاد علوِّ مكانته عند اللّه تعالى، وأنَّ اللّه تعالى قد رفع ذكرَه إلى يوم القيامة.

- اعتقاد أنَّه ما أبغض رسولَ اللّه ﷺ أحدٌ وشَنَأَهُ، وشنأ شيئًا ممَّا جاء به إلاَّ وقطع اللّه تعالى ذكرَه.

ومَنْ أحبَّه واتَّبع سنَّته وعظَّمه رفع اللّه تعالى ذكرَه.

ولذلك قال بعض السَّلف: «أهل السُّنَّة يموتون ويحيى ذكرُهم، وأهلُ البدعة يموتون ويموت ذكرُهم».

يقول شيخ الإسلام رحمه الله موضِّحًا هذا المعنى:

«سورة الكوثر، ما أجلَّها من سورة! وأغزر فوائدها على اختصارها! وحقيقةُ معناها تُعلم من آخرها؛ فإنَّه سبحانه وتعالى بَتَرَ شانِئَ رسولِه من كلِّ خير، فيبتر ذكرَه وأهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزوَّد فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهِّله لمعرفته ومحبَّته والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرا ولا عونًا، ويبتره من جميع القُرَب والأعمال الصَّالحة فلا يذوق لها طعمًا ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء من شَنَأَ بعضَ ما جاء به الرَّسول ﷺ وردَّه لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره؛ كمن شنأ آيات الصِّفات وأحاديث الصِّفات وتأوَّلها على غير مراد اللّه ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه ومذهب طائفته، أو تمنَّى أن لا تكون آيات الصِّفات أُنزلت ولا أحاديث الصِّفات قالها رسول اللّه ﷺ.

(13) انظر لهذه الفائدة: «المجموع» لشيخ الإسلام (16/532 - 533).

ومن أقوى علامات شناءته لها وكراهته لها: أنَّه إذا سمعها حين يَستدلُّ بها أهلُ السُّنَّة على ما دلَّت عليه من الحقِّ اشمأزَّ من ذلك وحاد ونفر عن ذلك لِما في قلبه من البُغض لها والنُّفرة عنها، فأيُّ شَانِئٍ للرَّسول أعظم من هذا، وكذلك أهل السَّماع الَّذين يرقصون على سماع الغِنَا والقصائد والدُّفوف والشَّبَّابات إذا سمعوا القرآن يُتلى ويُقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأيُّ شنآن أعظم من هذا، وقِس على هذا سائر الطَّوائف في هذا الباب.

وكذا من آثر كلام النَّاس وعلومهم على القرآن والسُّنَّة، فلولا أنَّه شانئ لِمَا جاء به الرَّسول ما فعل ذلك، حتَّى إنَّ بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان، ولكن أعظم من شنأه وردَّه من كَفَرَ به وجحده وجعله أساطير الأوَّلين وسحرًا يُؤْثَر، فهذا أعظم وأطمُّ انبتارًا، وكلُّ من شنأه له نصيبٌ من الانبتار على قدر شناءته له، فهؤلاء لَمَّا شنؤوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كلَّه معاديًا لهم فبترهم منه...

وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك، والأبتر المقطوع النَّسل الَّذي لا يُولد له خيرٌ ولا عملٌ صالح، فلا يتولَّد عنه خيرٌ ولا عمل صالح، قيل لأبي بكر بن عيَّاش: إنَّ بالمسجد قومًا يَجلسون ويُجلس إليهم، فقال: مَنْ جَلَسَ للنَّاس؛ جَلَسَ النَّاسُ إليه، ولكن أهلُ السُّنَّة يموتون ويحيى ذكرُهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرُهم؛ لأنَّ أهل السُّنَّة أحيوا ما جاء به الرَّسول ﷺ فكان لهم نصيبٌ من قوله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، وأهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرَّسول ﷺ فكان لهم نصيبٌ من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

فالحذرَ الحذرَ أيُّها الرَّجل من أن تَكْرَهَ شيئًا ممَّا جاء به الرسول ﷺ أو تردَّه لأجل هَوَاكَ أو انتصارًا لمذهبك أو لشيخك أو لأجل اشتغالك بالشَّهوات أو بالدُّنيا؛ فإنَّ الله لم يوجب على أحدٍ طاعة أحد إلاَّ طاعة رسوله والأخذ بما جاء به بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتَّبع الرَّسول ما سأله الله عن مخالفة أحد، فإنَّ من يطيع أو يُطاع إنَّما يُطاع تبعًا للرَّسول، وإلاَّ لو أمر بخلاف ما أمر به الرَّسول ما أطيع، فاعلم ذلك واسمعْ وأطعْ واتَّبع.

ولا تبتدع؛ تكن أبتر مردودًا عليك عملك، بل لا خير في عملٍ أبتر من الاتِّباع ولا خير في عامله، والله أعلم»[14].

هذا ما يسَّر الله تعالى بيانَه من فوائد هذه السُّورة الجليلة، وصلِّ اللَّهمَّ وسلِّم على نبيِّنا محمَّد.



(14) «المجموع» (16/526 ـ 529).

من أعلام النبوة

تَسَلُّطُ المُسلمينَ على اليهودِ

د/ عبد المجيد جمعة

أستاذ الفقه بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أو الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إلاَّ الغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ اليَهُودِ».

أوَّلاً. تخريج الحديث:

أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود (2768) ومسلم ـ واللَّفظ له ـ في الفتن وأشراط السَّاعة، باب: لا تقوم السَّاعة حتَّى يمرَّ الرَّجلُ بقبر الرَّجل (2922)، وفي رواية لابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا، بلفظ: «**تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يَقُولُ الحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ**»، أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النُّبوَّة في الإسلام (3398)، ومسلم في الفتن وأشراط السَّاعة، باب لا تقوم السَّاعة حتَّى يمرَّ الرَّجلُ بقبر الرَّجل (2921).

ثانيًا. المعنى الإجمالي:

إنَّ الصِّراع بين المسلمين وبين اليهود مستمرٌّ إلى قيام السَّاعة، وإنَّ اليهود مهما كانت لهم دولة؛ فإنَّما هي جولة، ومهما كانت لهم دائرة فهي سائرة، وعلى الباغي تدور الدَّوائر، وتدول الدَّوائل، ولهذا بشَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أمَّته أنَّ العاقبة لهم والنَّصر حليفهم، حيث أخبر أنَّه سيقتتل المسلمون مع اليهود في مستقبل الزَّمان؛ فيتسلَّط المسلمون عليهم، ويظهر اللّه عزَّ وجلَّ الآيات البيِّنات، ويسخِّر للمسلمين الجمادات، ويُنْطِقُ الحجرَ والشَّجرَ إذا اختفى يهوديٌّ وراءه ليدلَّ عليه، فيقول للمسلم: يا مسلم يا عبد اللّه! هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله، فجمع بين وصفين: الإسلام والعبوديَّة للّه تعالى، ليبيِّن أنَّ الَّذي يستحقُّ هذا الفضل من جمع هذين الوصفين.

ثمَّ استثنى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك الشَّجر اليهودي الخبيث الَّذي يشبههم في خبثهم وشرِّهم، وهو شجر الغرقد، فلا يدلُّ عليهم؛ لأنَّه منهم.

ثالثًا. أحكام الحديث:

دلَّ هذا الحديث على حِكَم وأحكام كثيرة،

نجملها فيما يلي:

أوّلا: فيه إثبات قيام السَّاعة - وهو أحد الأركان الّتي لا يستقرُّ إيمان العبد إلاَّ بها - وأنَّ لها علامات وأشراطًا، تكون هذه العلامات إيذانًا بقربها، كما قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا** ﴾ [محمد: 18].

ثانيًا: قوله: «اليهود»، قيل: سمِّيت اليهود اشتقاقًا من هادُوا: أَي تابوا، والهَوْد: التَّوبة، هَادَ يهود هَوْدًا وهيادة، وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحقِّ، فهو هائد: أي تائب، قال الشَّاعر:

إنّي امرؤ من حبّه هائد

أي تائب، وسمُّوا بذلك؛ لأنَّهم تابُوا عن عبادة العجل، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: 156]، أي تبنا إليك.

واليهود جمع يَهُودِيٍّ، فأَدخلوا الألف واللاَّم فيها على إِرادة النَّسب، كما يُقال في المجوس: مَجوسِيٌّ، وفي العَجَم والعَرَب: عَجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ؛ وأَرادوا باليَهُودِ اليَهُودِيِّينَ، ولكنَّهم حَذَفُوا ياءَ الإِضافة، كما قالوا: زِنْجِيٌّ وزِنْج.

وقيل: لنسبتهم إلى «يهوذا» أكبر أولاد يعقوب عليه السلام، فقلبت العرب الذَّال دالاً؛ لأنَّ الأعجميَّة إذا عرِّبت غيِّرت عن لفظها.

وبناءً على هذا، لا يصحُّ تسمية اليهود بـ«إسرائيل» أو «إسرائيليِّين»، أو تسمية دولتهم: «دولة إسرائيل»، كما هو شائع على ألسنة السِّياسيِّين والباحثين والصَّحفيِّين، بل كثير من المسلمين؛ لأنَّ «إسرائيل» هو لقبُ يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ **كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ** ﴾ [آل عمران: 93]، وقد سمَّاهم الله تعالى في القرآن الكريم: «بني إسرائيل»؛ وبنو إسرائيل هم ذرِّيَّته، ونسبة لهذا، سمَّى اليهود دولتهم بدولة إسرائيل - «علمًا بأنَّهم لا يَمُتُّونَ بصلة إلى العبرانيِّين الإسرائيليِّين القدماء، بل هم أخلاط من شعوب الأرض المتهوِّدين، تسوقهم دوافع استعماريَّة وعنصرية»[1].

وقد ترتَّب على هذا من المفاسد، أن صار كثير من المسلمين إذا لعنوا اليهود وذمُّوهم وشتموهم قالوا: «لعن الله إسرائيل» ونحو ذلك، وجهلوا أنَّهم يلعنون نبيَّ الله من حيث لا يعلمون، وهذا من كيد اليهود وتحريفهم الكَلِمَ عن مواضعه، كما هي عادتهم، ولهذا يعجبهم أن يتسمُّوا بهذا الاسم؛ لأنَّهم يدَّعون أنَّ إبراهيم عليه السلام كان على ملَّتهم ودينهم، فأرادوا أن ينتسبوا إليه وإلى نسله يعقوب عليه السلام، فأكذَبهم الله، وأدحض حجَّتهم، ونزَّه إبراهيم عليه السلام من دعاويهم الكاذبة، وبيَّن أنَّه كان على الحنيفيَّة الإسلاميَّة، ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مشركًا، فقال: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران]؛ وكذلك يزعمون أنّهم شعب الله المختار، ولهذا سمّاهم

(1) انظر: «الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة» العقل والقفاري (ص18 - 19)، الرِّياض، دار الصميعي/ ط1، 1413هـ - 1992م.

الله تعالى بني إسرائيل، بخلاف اسم «اليهود»، فإنَّهم يشمئزُّون من تسميتهم بذلك؛ لأنَّ كلمة «يهودي» تعتبر شتيمة، ولهذا ذكرت كلمة اليهود في القرآن الكريم في موطن الذَّمِّ حين ضلُّوا عن الحقِّ وانحرفوا عن الصِّراط المستقيم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وهذا يدلُّ على أنَّهم لقِّبوا بهذا اللَّقب بعد فساد حالهم؛ وللشَّيخ عبد الله بن زيد آل محمود رسالةٌ باسم: «الإصلاح والتَّعديل فيما طرأ على اسم اليهود والنَّصارى من التَّبديل»، فيها تحقيق بالغ بأنَّ «يهود» انفصلوا بكفرهم عن بني إسرائيل زمن بني إسرائيل، كانفصال إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَام عن أبيه آزر[2].

ثالثًا: فيه إشارة إلى أنَّ اليهود سيحتلُّون بيت المقدس، ويجتمعون كلُّهم فيه، وأنَّهم يغرسون شجرة الغرقد، ليحتموا بها ويختفوا من ورائها؛ فيقاتلهم المسلمون فيتسلَّطون عليهم، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء: 7]، ويشهد له أيضا ما رواه البخاري (3005) عن عوف بن مالك قال: أتيت النَّبيَّ ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبَّة من أدم فقال: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ»، وذكر بقيَّة الحديث.

ففيه علم من أعلام النُّبوَّة، حيث وقع ما أخبر به النَّبيُّ ﷺ، فقد احتلَّ اليهود بيت المقدس، وأكثروا من غرس شجرة الغرقد في الأراضي الفلسطينيَّة المغتصبة، لعلمهم بما أخبر به النَّبيُّ ﷺ؛ وسيقاتلهم المسلمون ويغلبونهم، كما أخبر بذلك الصَّادق المصدوق ﷺ.

رابعًا: وفيه من أعلام النُّبوَّة أيضًا، حيث أخبر النَّبيُّ ﷺ عن أمر غيبيٍّ سيقع، وقد وقع الاقتتال مرَّات وكرَّات، وكان القتال سجالاً، وسيقع القتال الحاسم الَّذي تحسم فيه المعركة وينتصر المسلمون على اليهود الظَّالمين، كما وعدنا به سيِّد المرسلين ﷺ، وإنَّ غدًا لناظره لقريب.

خامسًا: وفيه دلالة على أنَّ الصِّراع مع اليهود ليس قصير الأجل، قريب الأمل، بل يمتدّ إلى قيام السَّاعة، مهما تخلَّله التطبيع المفضي إلى التمييع.

سادسًا: وفيه بيان أنَّ اليهود أشدُّ عداوة للمسلمين من غيرهم، لأنّ النبي ﷺ أخبر أنّه سيقاتل المسلمون اليهود، ولم يذكر طائفة أخرى، ولا شكّ أنّ عداوتهم قديمة منذ بعثة النبي ﷺ، فقد كفروا بالرَّسول ﷺ، وهمُّوا بقتله غير مرَّة، وسمّوه وسحروه، ونقضوا عهده، وألَّبُوا عليه أعداءه، وتحالفوا مع كفَّار قريش ضدَّه.

وقد استمرَّت عداوتهم للإسلام والمسلمين إلى العصر الحديث، حيث احتلُّوا أرض فلسطين، وعاثوا فيها فسادًا، فشرَّدوا أهلها، وقتلوا أطفالها،

(2) انظر «لسان العرب»: مادة «هود»، «تاج العروس» (353/9)، «تفسير ابن كثير» (285/1)، «تفسير القرطبي» (432/1)، «معجم المناهي اللَّفظيَّة» للشيخ بكر أبو زيد، «حكم تسمية اليهود بإسرائيل» للشَّيخ ربيع بن هادي المدخلي.

ودمَّروا ديارها، وخرَّبوا مساجدها، وجرفوا أراضيها، وقلعوا أشجارها، وانتهكوا حرماتها، وما حدث في «غزَّة» اليوم خيرُ شاهد على ما تكنُّه هذه العصابة المارقة من البغض الشَّديد، والعداء المديد لأهل التَّوحيد، فهذا المدعو: «مناحيم بيجن» يقول في كلمته: «أنتم أيُّها الإسرائيليُّون! لا يجب أن تشعروا بالشَّفقة حتَّى تقضوا على عدوِّكم، ولا عطف ولا رثاء حتَّى تنتهوا من إبادة ما يسمَّى بالحضارة الإسلاميَّة، الَّتي سنبني على أنقاضها حضارتنا»[3].

وقد كشف الله تعالى هذه الحقيقة فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ [المائدة: 82].

سابعًا: قوله: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ**»، المراد بقتال اليهود وقوع ذلك عند خروج الدَّجَّال، ونزول عيسى عليه السلام، ويشهد لذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ**[4] **بِمَرِّقَنَاة فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ ثُمَّ يُسَلِّطُ اللهُ المُسْلِمِينَ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُونَهُ وَيَقْتُلُونَ شِيعَتَهُ حَتَّى إِنَّ الْيَهُودِيَّ لَيَخْتَبِئُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَوْ الحَجَرِ فَيَقُولُ الحَجَرُ أَوْ الشَّجَرَةُ لِلْمُسْلِمِ: هَذَا يَهُودِيٌّ تَحْتِي فَاقْتُلْهُ**» رواه أحمد (255/9)، وفيه محمَّد بن إسحاق، وهو مدلِّس، وقد عنعنه، وبقية رجاله ثقات؛ وقد وقع صريحًا في حديث أبي أمامة رضي الله عنه في قصَّة خروج الدَّجَّال ونزول عيسى عليه السلام، وفيه: «**قَالَ عِيسَى عليه السلام: افْتَحُوا البَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْف يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحلًّى وسَاج**[5]**، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبقَنِي بهَا فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللّدِّ الشَّرْقِي؛ فَيَقْتُلُهُ فَيَهْزِم اللهُ اليَهُودَ فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ اللهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لاَ حَجَر وَلاَ شَجَر وَلاَ حَائِط ولاَ دَابَّة إِلاَّ الغَرْقَدَة فَإِنَّها مِنْ شَجَرِهِمْ لاَ تَنْطِقُ إِلاَّ قَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ المسلم هَذَا يَهُودِيٌّ، فتعال اقتله**».

أخرجه ابن ماجه (4077)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (7875)، وقال الحافظ في «الفتح» (610/6): «وأصله عند أبي داود ونحوه في حديث سمرة رضي الله عنه عند أحمد بإسناد حسن؛ وأخرجه ابن منده في كتاب الإيمان من حديث حذيفة رضي الله عنه بإسناد صحيح».

ولا يفهم من هذا أنَّ المسلمين يبقون مكتوفي الأيدي ينتظرون نزول المسيح عليه السلام ليقتل اليهود، ويطهِّر بيت المقدس من دنسهم، بل هو إخبارٌ عمَّا سيقع في آخر الزَّمان، بل الواجب عليهم أن يعدُّوا العدَّة لاسترجاع البيت المقدس في أيِّ وقت.

(3) «صراعنا مع اليهود» (59).

(4) السبخة ـ بالفتح ـ الأرض المالحة، وجمعها: سباخ، انظر: «مشارق الأنوار» (399/2).

(5) السَّاج: هو الطيلسان الأخضر، انظر: «النهاية» (432/2).

ثامنًا: فيه إشارة إلى أنَّ الصِّراع بين المسلمين واليهود، وتحرير البيت المقدس من الاحتلال لا يكون إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى، لا بعقد المؤتمرات، وإجراء المفاوضات، وكثرة القرارات، ورفع الشِّعارات وإقامة المظاهرات، أو اللُّجوء إلى مجلس الأمن (لليهود)! أو الرُّجوع إلى هيئة الأمم المتَّحدة (على المسلمين)! وقد جرّبت هذه الوسائل: بدءً باتِّفاقيَّة «كامب ديفد» (المعاهدة المصريَّة اليهوديَّة)، ومرورًا باتِّفاقيَّة «أوسلو»، واتِّفاقيَّة وادي عربة (المعاهدة الأردنيَّة اليهوديَّة)، وكلُّها باءت بالفشل، بل تحدّى هؤلاء اليهود قرارت مجلس الأمن القاضية بانسحاب إسرائيل (الدولة اليهودية) من الأراضي الفلسطينة، بل ما زادهم ذلك إلاَّ تصلُّبًا بمواقفهم، ونقضًا لعهودهم، واستخفافًا بمفاوضيهم، وقد نقضوا الوعود والعهود مع الله ومع رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرعد: 25]، وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء]، فكيف لا ينقضون عهدهم مع الناس؟! إنّ هؤلاء اليهود، لا يحاورون إلا بإراقة الدماء، ولا يفاوضون إلا على رؤوس الجماجم والأشلاء. وإنّ الحرب والإبادة الجماعية في الفكر اليهودي لمن المسلّمات والبديهيات؛ لأنّهم هم الشعب المختار - بزعمهم - ولأنّ الأرض ملك لهم، فوجب طرد الشعوب منها عن طريق الحرب والإبادة.

وإذا كانت هذه لغتهم، فوجب مخاطبتهم باللُّغة الَّتي يفهمون، وإنَّ اليهود قد اغتصبوا الأرض، فوجب معاملتهم معاملة المغتصب، وإنَّ البيت المقدس أُخِذَ بالقوَّة، ومن الحكمة السَّائرة على ألسنة السَّاسة: «ما أُخِذ بالقوَّة لا يستردُّ إلاَّ بالقوَّة».

صحيح أنَّ الدَّولة اليهوديَّة متفوِّقة من حيث التَّسلُّح، وتعتبر رابع دولة أقوى في العالم من حيث التّرسانة العسكريَّة، وهي مدعَّمة من أمريكا مباشرةً، ومن الدَّول الأوروبيَّة مباشرة أو غير مباشرة، لكن أمرنا الله تعالى بأن نعدَّ لهم العدَّة فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60]، ثمَّة سلاح آخر استأثر به المسلمون، لا يملكه اليهود ومن شايعهم، ولا يفقهونه، وهو سلاح الإيمان، والاستعانة بالله، وصدق التوجُّه إليه، والدُّعاء في جوف اللَّيل، ولا شكَّ أنَّه أمضى وأنكى.

إن يكن للهود آلات قتال

فلنا في هجعة اللَّيل قنــوت

وقد روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**» رواه النسائي (3178) بإسناد صحيح، وهو في البخاري (2739) دون زيادة: «**بدعوتهم...**».

ولقد انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر بقوَّة الإيمان، رغم أنَّهم كانوا قلَّة وأذلَّة، وانهزموا في غزوة أحد - رغم أنَّ النَّصر كان حليفهم في بداية المعركة - بسبب مخالفة

أمر النَّبيِّ ﷺ، ﴿وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران : 152]، والتَّاريخ الإسلامي حافل بالفتوحات الإسلاميَّة والانتصارات الرَّبَّانيَّة بسبب قوَّة الإيمان، رغم قلَّة العدد، وضعف المدد، وهو شاهد على الهزائم والانتكاسات الَّتي لحقت بالمسلمين بسبب ضعف الإيمان واتِّباع الشَّهوات، كما وقع في الأندلس.

تاسعًا: فيه دلالة على أنَّ الله تعالى يؤيِّد المؤمنين في قتال اليهود، بإظهار آياته ومعجزاته، وذلك بتسخير كلِّ الجمادات ـ كما في رواية أبي أمامة ﷺ ـ لتعين المسلمَ على قتل اليهوديِّ إلاَّ شجرة الغرقد.

عاشرًا: وفيه ظهور الآيات قرب قيام السَّاعة؛ من كلام الجماد من شجر وحجر، وظاهره أنَّ ذلك ينطق حقيقة، وليس ذلك على الله بعزيز، والأمثلة على ذلك كثيرة.

حادي عشر: فيه إشارة إلى أنَّ الصِّراع مع اليهود قائمٌ على أساس الإسلام لقوله ﷺ: «**يَا مُسْلِمُ**»، ولم يقل: يا فلسطينيُّ، يا مصريُّ، يا عربيُّ...!! وعلى هذا؛ ينبغي أن نعتبر قضيَّة فلسطين قضيَّة إسلاميَّة، بعيدة عن النَّعارات القوميَّة وشعارات العروبة؛ لأنَّ فلسطين أرض مقدَّسة ومباركة بنصِّ القرآن، وهي عريقة بإسلامها، فيها مسجد الأقصى الَّذي أُسْرِي إليه نبيُّنا ﷺ، ومنه عرج به إلى السِّدرة المنتهى، كما قال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء : 1]، وكان أولى القبلتين، ومنع من شدّ الرحال إلا إليه والمسجد الحرام والمسجد النبوي؛ وقد اهتمَّ الإسلام بالبيت المقدس اهتمامًا بليغًا منذ أن سطع فجره، حيث بعث النَّبيُّ ﷺ جيشًا بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه لتخليصه من الرُّوم سنة ثمان من الهجرة، ثمَّ تولَّى الأمر بعده أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فبعث جيشًا قوامه (24 ألفًا) بقيادة أبي عُبيدة بن الجرَّاح رضي الله عنه، ثمَّ كتب الله تعالى فتحه وتطهيره من أنجاس الرُّوم على يد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، الفاروق الَّذي فرَّق الله به بين الحقِّ والباطل والإيمان والكفر سنة (15 هجرية ـ 636 ميلادية)، وظلَّت فلسطين إسلاميَّة منذ ذلك الوقت حتَّى سنة (1366هـ ـ 1948م) باستثناء فترة ما بين (1099م ـ 1187م)، الَّتي استطاع فيها الصَّليبيُّون الاستيلاء عليها، ثمَّ أعادها إلى حضن الإسلام القائد القوَّام صلاح الدِّين الأيُّوبي رحمه الله في يوم الجمعة 27 رجب 583هـ ـ 1187م.

وممَّا يؤكِّد على أنَّ قضيَّة فلسطين قضيَّة إسلاميَّة بحتة أنَّ من عقيدة اليهود: هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان عليه السلام المزعوم على أنقاضه، وهي عقيدة لا تخصُّ اليهود، بل تتعدَّى إلى النصرانية البروتستانتيَّة (النصرانية الصُّهيونيَّة)، ولهذا نرى هذا الدَّعم غير المحدود ودون قيود من أمريكا وأوربا لدولة اليهود؛ لأنَّ هذه العقيدة لها أتباع كثر في تلك البلدان، وقد حاول اليهود مرَّات وكرَّات هدم المسجد

الأقصى، ويقومون حاليًا بحفريَّات كبيرة تحت أنظار العَالَم، والله المستعان.

ولهذا يحرص اليهود على إبعاد الإسلام من ساحة المعركة لاعتقادهم الجازم أنَّ العرب دون الإسلام لا يساوون شيئًا، فقد نشرت صحيفة «يديعوت أحرنوت» اليهوديَّة في (1987/3/11م) مقالاً جاء فيه: «إنَّ على وسائل إعلامنا أن لا تنسى حقيقة مهمَّة هي جزء من استراتيجيَّة إسرائيل في حربها مع العرب، هذه الحقيقة هي: أنَّنا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب طوال ثلاثين عامًا، ويجب أن يبقى الإسلام بعيدًا عن تلك المعركة إلى الأبد، ولهذا يجب أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطَّتنا تلك في استمرار منع استيقاظ الرُّوح الدِّينيَّة بأيِّ شكل، وبأيِّ أسلوب، ولو اقتضى الأمر الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف لإخماد أيِّ بادرة ليقظة الرُّوح الإسلاميَّة في المنطقة المحيطة بنا».

إذًا، فالصراع مع اليهود ليس صراعا سياسيا، بل هو صراع دينيّ عقديّ، فهم يحاربون الإسلام، ولا يعرفون معنى للسلام، فوجب حلّه دينيًا، ومواجهته عقديًا.

إنّ هؤلاء العصابة المارقة يقاتلوننا بدينهم الباطل، فلنقاتلهم بديننا الحقّ؛ لأنّ الحق يدحض الباطل، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: 18].

ثاني عشر: فيه إشارة إلى أنَّ من أسباب النَّصر الرُّجوع إلى الإسلام الصَّحيح والتَّمسُّك بمبادئه وتعاليمه قلبًا وقالبًا؛ وتحقيق التَّوحيد وإخلاص العبوديَّة لله وحده، لقوله ﷺ: «**يَا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللَّهِ!**»، فمن اتَّصف بهذين الوصفين فهو المؤهَّل لحمل الأمانة ولواء النَّصر، ويشهد له ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بالعينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ وَرَضِيتُمْ بالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزَعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**» رواه أبو داود (3462) بإسناد صحيح، والإسلام الصَّحيح هو ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابه ومن سار على دربهم من التَّابعين وتابعيهم، ويدلُّ عليه قوله ﷺ: «**ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ**» رواه أحمد (355/30) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، بإسناد صحيح، وأخبر أنَّ الطَّائفة المنصورة إلى يوم القيامة هي ما كان عليه ﷺ وأصحابه.

وإنَّ الله تعالى لا ينصر أمَّةً عمَّت فيها الشِّركيَّات، وفشت فيها الخرافات والمحدثات.

ثالث عشر: فيه إشارة إلى أنَّ اليهود، من خصالهم الجُبْن والخوف من الموت؛ وذلك لشدَّة حرصهم على الحياة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]، لقوله ﷺ: «**هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي**»، وقد بيّن الله تعالى هذه الحقيقة، وكشف عن شخصيَّتهم الضَّعيفة، ونفسيَّتهم الهزيلة، وأنَّهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مبارزة أهل الإيمان إلاَّ وهم مستترون خلف الحيطان، مختفون

وراء الجدران كالجرذان، بل يخافون من المسلمين أكثر من خوفهم من الله، كما قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]، ولقد انكشفت هذه الحقيقة في هذا الزَّمان، بشكل واضح للعيان، كما في عدوانهم الأخير على مدينة «غزَّة»، فما كانوا يقاتلون إلاَّ من وراء الطَّائرات والبوارج والدَّبَّابات، وإذا نزلوا بساحة الوغَى، تحصّنوا بالقرى، وإذا اشتدّت الملحمة، سُمع لهم صياح كالذئب إذا عوى.

رابع عشر: فيه دليل على بقاء الإسلام وانتصاره وانتشاره إلى قيام السَّاعة، وإلى نزول عيسى عليه السلام الَّذي يحكم بشريعة الإسلام، ويقاتل الدَّجَّال، ويستأصل اليهود الَّذين هم أتباع الدَّجَّال، لقوله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ**»، وقد وردت أحاديث تؤكِّد وتؤيِّد هذا المعنى، منها ما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**» رواه مسلم (7440)، وما رواه تميم الدَّاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاًّ يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ**» رواه أحمد (154/28)، وصحَّحه الشَّيخ الألباني رحمه الله على شرط مسلم في «تحذير السَّاجد» (ص112).

خامس عشر: وفيه أنَّ اليهود والكيان الصُّهيوني، ستنقضي جولتهم، وتنتهي دولتهم، وتنتكس أعلامهم وتنطمس معالمهم، على أيدي المسلمين، مهما طال الليل والنهار، وتعاقبت الأمصار والأعصار، وإنّما الأمور بالخواتيم.

سادس عشر: فيه دلالة على أنَّ اليهود قومٌ قد انطووا على الخبث كشجرتهم الغرقد، وهي شجرة شوكيَّة، ذات أشواك صلبة، لها تأثير سامٌّ، ولها ثمارٌ لا فائدة فيها، وتنمو في الأراضي الجافَّة المالحة الَّتي لا تصلح للزِّراعة، بل فيها ضرر على الإنسان والماشية، قال الإمام النَّووي رحمه الله في «شرح مسلم» (45/18): «الغرقد نوعٌ من شجر الشَّوك معروف ببلاد بيت المقدس».

ولا شكَّ أنَّ للبيئة تأثيرًا عجيبًا في طبائع النَّاس وأخلاقهم، ويظهر هذا جليًّا في اليهود، فقد حرموا كلّ صفات البرّ، وجمعوا كلّ خصال الشَّرِّ: من المكر والغدر، والحسد والبغض، والخيانة ونقض الوعد، والقسوة والغلظة، وقتل الأنبياء، والفحشاء والمنكر، وأكل الرِّبا والسُّحت، والخزي وغير ذلك، ويكفيك أنّهم أتباع الدجّال الذي إذا خرج أفسد في الأرض، وأهلك الحرث والنسل؛ ولهذا لَمَّا يقتله المسيح عليه السلام، ويستأصل شأفة اليهود، يعمُّ الخير أرجاء الأرض، فيفيض المال ويحسن الحال، وتكثر الزُّروع والضُّروع، وتدفن الأحقاد والأحساد، وتزول الشحناء والبغضاء، ويتحقق الأمان حتى مع الحيوان، وينزل من السَّماء ماء

ليطهِّر الأرض من أرجاسهم وأنجاسهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً، فَيَكْسِر الصَّلِيبَ، وَيَقْتُل الخِنْزِيرَ، وَيَضَع الجِزْيَةَ، وَيَفِيض المَال حَتَّى لاَ يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**، ثمَّ يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرأوا إن شئتم: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)**﴾ [سورة النساء]».

وعن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه في حديث الدَّجَّال المطوَّل، وفيه: «**ثُمَّ يَهْبطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**»، رواه مسلم (2137).

وفي حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أيضًا: «**فَيَكُونُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلاً، وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةُ، فَلاَ يسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلاَ بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ، وَتُنْزَعُ حُمَةُ كلِّ ذات حُمة، حَتَّى يُدْخِلَ الوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِي الحَيَّةِ فَلاَ تَضُرُّهُ، وَتُفِرُّ الوَلِيدَةُ الأَسَدَ، فَلاَ يَضُرُّهَا، وَيَكُونُ الذِّئْبُ فِي الغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلأُ الأَرْض مِنَ السِّلْمِ كَمَا يملأُ الإِنَاء مِنَ المَاءِ، وَتَكُونُ الكَلِمَةُ وَاحِدَة، فَلاَ يُعْبَدُ إِلاَّ اللهُ، وَتَضَعُ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا، وَتَكُونُ الأَرْضُ كَفَاثُورِ الفِضَّةِ، تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بعَهْدِ آدَمَ، حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى القِطْفِ مِنَ العِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ، وَيَجْتَمِعُ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ، وَيَكُونُ الثَّورُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ المَالِ، وَتَكُونُ الفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ**» رواه ابن ماجه (4077)، وفيه ضعف، لكن هذه الفقرات لها شواهد، كما نبَّه عليه الشَّيخ الألباني رحمه الله في «قصَّة المسيح الدَّجَّال» (49).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ المَسِيحِ؛ يُؤْذَنُ لِلسَّمَاءِ فِي القَطْرِ وَيُؤْذَنُ للأَرْضِ فِي النَّبَاتِ حَتَّى لَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصَّفَا لَنَبَتَ وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الأَسَدِ فَلاَ يَضُرُّهُ وَيَطَأُ عَلَى الحَيَّةِ فَلاَ تَضُرُّهُ وَلاَ تَشَاح وَلاَ تَحَاسُدَ وَلاَ تَبَاغُضَ**»، وصحّحه الشَّيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (7366).

فَضلُ أمِّ المُؤمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَمَنزِلَتُهَا عِندَ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجمَاعَةِ

حسن بوقليل
ليسانس في الشريعة الإسلامية

مِن مُعتَقَدِ أَهلِ السُّنَّة والجَمَاعَة في صَحَابَةِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَن نُحِبَّهم، وَلا نُبغِضَ أَحَدًا مِنهُم، وأَن نُمسِكَ عَمَّا شَجَرَ بَينَهُم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: 10].

عن عُروَةَ بنِ الزُّبير رضي الله عنه قَال: قَالَت لِي عَائِشَة رضي الله عنها: يَا ابنَ أُختِي! أُمِرُوا أَن يَستَغفِرُوا لأَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّوهُم[1].

وقال الإمَامُ القُرطبيُّ المالِكيُّ رحمه الله (ت: 671هـ): «**هذِهِ الآيَة دَلِيلٌ عَلَى وُجُوب محبَّة الصَّحَابَة**؛ لأَنَّه جَعَل لِمَن بعدَهُم حَظًّا في الفَيءِ مَا أَقامُوا عَلَى محبَّتِهم ومُوَالاتِهم وَالاستِغفَار لَهُم، وأَنَّ مَن سَبَّهم، أَو وَاحِدًا مِنهُم، أَو اعتَقَد فِيه شَرًّا أَنَّه لا حَقَّ لَه في الفَيءِ، رُوِيَ ذَلِك عَن مالِكٍ وَغَيرِه، قَال مَالِك: مَن كَانَ يُبغِضُ أَحَدًا مِن أَصحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَو كَانَ في قَلبِهِ عَلَيهِم غِلٌّ، فَلَيسَ لَهُ حَقٌّ في فَيءِ المُسلِمِين، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآيَةَ»[2].

وعَن سَعدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: النَّاسُ عَلَى ثَلاثِ مَنَازِلَ؛ فَمَضَت مِنهُمُ اثنَتَانِ، وَبَقِيَت وَاحِدَةٌ، فَأَحسَنُ مَا أَنتُم كَائِنُونَ عَلَيهِ أَن تَكُونُوا بِهَذِهِ المَنزِلَةِ الَّتِي بَقِيَت، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآيَةَ [الحشر: 8]، ثمَّ قَالَ: هَؤلاءِ المُهَاجِرُون، وَهَذِه مَنزِلَةٌ وَقَد مَضَت، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآيَةَ [الحشر: 9]، ثمَّ قَال: هَؤلاءِ الأَنصَارُ، وَهَذِه مَنزِلَةٌ وَقَد مَضَت، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآيَةَ [الحشر: 10]، قَالَ: فَقَد مَضَت هَاتَانِ المَنزِلَتَانِ، وَبَقِيَت هَذِهِ المَنزِلَةُ، فَأَحسَنُ مَا أَنتُم كَائِنُونَ عَلَيهِ أَن تَكُونُوا

(1) رواه مسلم (3022).

(2) «الجامع لأحكام القرآن» (20/373).

بهَذِه المَنزِلَةِ الَّتِي بَقِيَت[3].

وقال الإمام أبو جعفَر الطَّحاويُّ رحمه الله (ت: 321هـ) ـ وَهُو يَتَكلَّمُ عَن الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم ـ: «**وَحُبُّهُم دِينٌ وَإيمَانٌ وَإحسَانٌ، وَبُغضُهُم كُفرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغيَانٌ**[4]»، فحبُّهم إيمانٌ: لأنَّه امتثالٌ لأمر الله عز وجل، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمَامُ عبدُ الله بنُ أَبِي زَيدٍ القَيرَوَانِيُّ المالِكيُّ رحمه الله (ت: 386هـ): «ولا يُذكَرُ أَحَدٌ مِن أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ **بأَحسَنِ الذِّكرِ**، وَالإمسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَينَهُم، وَأَنَّهُم أَحَقُّ النَّاسِ أَن يُلتَمَسَ لَهُمُ المَخَارِجُ، وَيُظَنَّ بهُم أَحسَنُ المَذَاهِبِ[5]».

فإذا تقرَّر هذَا عَقِيدَةً؛ فالوَاجِب عَلى كُلِّ مَن أَرَاد النَّجَاة في الدَّارَينِ أَن يَسلُكَ سَبيل سَلَفِه الصَّالِح في الاعتِقَاد، وَالعَمَل، وليَجتَهِد في نَشرِ هَذِه العَقِيدَة الطَّيِّبَة ـ في صَحَابَة رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ـ في أَهلِهِ ومُجتَمَعِه، كَمَا اجتَهَدَ الرَّوَافِضُ في سَبِّ[6] الصَّحَابَة رضي الله عنهم وَالحَطِّ مِنهُم، بَل أَكثر!!

وكلُّ عاقِلٍ يَعلَمُ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها[7]، وجميعَ أزواجِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أمَّهاتِ المؤمِنين، فضَّلهُنَّ اللهُ عز وجل برسُولِه صلى الله عليه وسلم، قال اللهُ عز وجل: ﴿**ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ**﴾ [الأحزاب: 6].

قال القرطبي رحمه الله: «شَرَّفَ اللهُ تَعَالَى أَزوَاجَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم بِأَن جَعَلَهُنَّ أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ، أَي: في وُجُوبِ التَّعظِيمِ وَالمَبَرَّةِ وَالإجلالِ، وَحُرمَةِ النِّكَاحِ عَلَى الرِّجَالِ، وَحَجْبهِنَّ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُنَّ ـ، بخِلافِ الأُمَّهَاتِ[8]».

وقد خُصَّت عائِشَة رضي الله عنها بذِكرِ فضائِلها مِن بَينِ أَزواجِه صلى الله عليه وسلم لِمَا حَسَدَهَا عَلَيه المنافِقُون في عَهدِهِ صلى الله عليه وسلم، ورَمَوهَا بهِ مِنَ العَظائِم، وبرَّأهَا اللهُ عز وجل فأَنزَل فِيهَا قُرآنًا يُتلَى إلى قِيَامِ السَّاعَةِ[9].

وكَانَت رضي الله عنها فَاضِلَةً، عَالِمةً، كَامِلَةً؛ قَالَ عُروَةُ رضي الله عنه: «مَا رَأَيتُ أَحَدًا أَعلَمَ بالفِقهِ، وَلا طِبٍّ، ولا شِعرٍ مِن عَائِشَةَ» وقال مَسرُوقٌ رحمه الله: «رَأَيتُ مَشيَخَةَ أَصحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الأَكَابِرِ يَسأَلُونَهَا عَنِ الفَرائِضِ» وقَالَ عَطَاءٌ رضي الله عنه: «كَانَت عَائِشَةُ أَفقَهَ النَّاسِ، وَأَحسَنَ النَّاسِ رَأيًا في العَامَّة» وقَالَ الزُّهرِيُّ رحمه الله: «لَو جُمِعَ عِلمُ عَائِشَةَ إلَى عِلمِ أَزواجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وعِلمِ جَمِيعِ النِّساءِ لَكَانَ عِلمُ عائِشَةَ أَفضلَ».

وجُملة ما رَوَت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أَلفَانِ ومِائَتَانِ وعَشَرَةُ أَحَادِيثَ (2210)؛ اتَّفَقَ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ

(3) الحاكم (3857) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه.

(4) «العقيدة الطَّحاويَّة» (ص475 ـ ابن أبي العزّ).

(5) «عقيدة ابن أبي زيد القيرواني» (ص412 وما بعدها ـ شرح القاضي عبدالوهَّاب).

(6) والسَّبُّ يَرجِع عَلَيهم؛ لأنَّ الصَّحابَة رضي الله عنهم بُرآءُ مِنه، ولِذَا قِيل: «إنَّ الرَّافِضِيَّ فَوَّارَةُ اللَّعنَةِ». [«الدِّينُ الخالِص» (264/3)].

(7) المقام لا يكفي لترجمتها، ولكن انظر: «أُسْد الغابة» (186/7)، «الاستيعاب» (ص918)، «الإصابة» (139/8)، «السِّيَر» (135/2).

(8) «الجامع لأحكام القرآن» (62/17).

(9) «كتاب الشَّريعة» (119/4).

عَلَى مِائَةٍ وَأَربَعَةٍ وَسَبعِينَ حَدِيثًا، وَانفَرَدَ البُخَارِيُّ بِأَربَعَةٍ وَخَمسِينَ، وَانفَرَدَ مُسلِمٌ بِتِسعَةٍ وَسِتِّينَ[10].

وقَد جَاءَتِ نصُوصٌ كَثِيرةٌ فِي فَضلِ عَائِشَةَ رضي الله عنها خُصُوصًا، وَجَاءَت آثَارُ السَّلَفِ فِي الحَثِّ عَلَى حُبِّ الصَّحَابَةِ، وَحُبِّ عَائِشَةَ رضي الله عنها، ومَن نَظَر فِي أَبوَابِ كُتُب الحَدِيثِ عَلِمَ اهتِمَامَ السَّلَفِ بِفَضَائِلِ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

📖 **مِن خَصَائِصِ عَائِشَةَ رضي الله عنها وفضائلها[11]:**

◇ **أَنَّها كَانَت أَحَبَّ أَزواجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إليه:** فكَانَ النَّبيُّ ﷺ يُحبُّها حُبًّا شَدِيدًا، فَقَد سَأَلَه عَمرُو بنُ العَاص رضي الله عنه: أَيُّ النَّاس أَحَبُّ إلَيكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**»، قُلتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «**أَبُوهَا**»، قُلتُ: ثُمَّ مَن؟ قَالَ: «**عُمَرُ**». فَعَدَّ رِجَالا، فَسَكَتُّ مَخَافَةَ أَن يَجعَلَنِي فِي آخرِهِم[12].

قَالَ الذَّهَبي رحمه الله: «وهذَا خبرٌ ثابتٌ رُغمَ أُنوفِ الرَّوَافِض، ومَا كَان عليه السلام ليُحِبَّ إلاَّ طَيِّبًا، وقد قال: «**لَو كُنتُ مُتَّخِذًا خَلِيلا مِن هَذِهِ الأُمَّةِ لاتَّخَذتُ أَبَا بَكرٍ خَلِيلا، وَلَكِن أُخُوَّةُ الإِسلامِ أَفضَلُ**»[13]، فأحبَّ أَفضَل رَجلٍ مِن أمَّته، وأَفضَلَ امرَأةٍ مِن أمَّتِه، فمَن أَبغَضَ حَبِيبَي رسولِ اللهِ ﷺ فهُو حَرِيٌّ أن يَكون بَغِيضًا إلى اللهِ ورَسُولِهِ»[14].

بَل كَانَ ﷺ حَرِيصًا عَلَى يَومِهَا؛ فَعَن عُروَة ابنِ الزُّبَير رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا كَانَ فِي مَرَضِهِ جَعَل يَدُورُ فِي نِسَائِه وَيَقُول: «**أَينَ أَنَا غَدًا؟ أَينَ أَنَا غَدًا؟**» - حرصًا عَلَى بَيتِ عَائِشَةَ -، قَالَت عَائِشَةَ: فَلمَّا كَان يَومِي سَكَن[15].

◇ **أَنَّ المَلَكَ أَرَى صُورَتَها لِلنَّبِيِّ ﷺ قَبلَ أَن يَتَزَوَّجَهَا:** فقال ﷺ: «**أُرِيتُكِ فِي المَنَامِ ثَلاثَ لَيَالٍ، جَاءَنِي بِكِ المَلَكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَكْشِفُ عَنْ وَجْهِكِ فَإِذَا أَنْتِ هِيَ، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِن عِندِ اللهِ يُمْضِهِ**»[16]، وكان كذلك.

◇ **أَنَّهَا زَوجَتُهُ فِي الدُّنيَا وَالآخِرَة:** فعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذكَرَ فاطِمة رضي الله عنها، قَالَت: فتكلَّمتُ أَنَا، فقَالَ: «**أَمَا تَرضَيْنَ أَن تَكُونِي زَوجَتِي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ؟!**»، قلتُ: بَلَى، قال: «**فَأَنتِ زَوجَتِي فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ**»[17].

◇ **أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَتَزَوَّج بِكرًا غَيرَهَا:** قَالَ ابنُ أَبي مُلَيكَةَ: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه لِعَائِشَةَ رضي الله عنها: لَم يَنكِحِ النَّبيُّ ﷺ بِكرًا غَيرَكِ[18]، وعَنهَا رضي الله عنها قَالَت: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيتَ لَو نَزَلتَ وَادِيًا، وفِيهِ شَجَرَةٌ قَد أُكِلَ مِنهَا، ووَجَدتَ

(10) «السِّير» (2/139).

(11) انظر: «جلاء الأفهام» (ص265)، و«عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم» للدُّكتور ناصر بن علي الشَّيخ (1/426).

(12) البخاري (3657) - واللَّفظ له -، ومسلم (2384).

(13) البخاري (3657) - واللَّفظ له -، ومسلم (2383).

(14) «السِّير» (2/142).

(15) البخاري (3774) - واللَّفظ له -، ومسلم (2443).

(16) البخاري (3895)، مسلم (2438).

(17) الحاكم (4/91)، وصحَّحه العلاَّمة الألباني في «الصحيحة» (2255) و(3011).

(18) علَّقه البخاري (3/489)، ووصله برقم (4753).

شَجَرًا لَم يُؤكَلْ مِنهَا، فِي أَيِّهَا كُنتَ تُرتِعُ بَعِيرَكَ؟ قَالَ: «**فِي الَّتِي لَمْ يُرْتَعْ مِنهَا**» - تَعنِي أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَم يَتزوَّج بكرًا غيرَهَا -[19].

◇ **وَكَان يَنزِلُ الوَحيُ فِي لِحَافِهَا دُونَ غَيرِهَا:** فَعَن عُروَة بن الزُّبَير رضي الله عنه قَال: كَان النَّاسُ يَتَحَرَّون بهَدَايَاهُم يَومَ عائِشَة[20]، قَالَت عَائِشَةُ: فَاجتمَع صَوَاحِبِي[21] إِلَى أمِّ سَلَمَة، فقَالُوا: يَا أمَّ سَلَمة! واللَّهِ إنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّون بهَدَايَاهُم يَومَ عائِشة، وإنَّا نُرِيدُ الخَيرَ كَمَا تُرِيدُهُ عَائِشَة، فمُرِي رَسُولَ اللَّه ﷺ أَن يَأمُرَ النَّاسَ أَن يُهدُوا إِلَيه حَيثُ مَا كَان، أَو حَيثُ مَا دَار، قالَت: فذَكَرَتْ ذلِك أمُّ سَلَمة للنَّبيِّ ﷺ، قالَت: فأَعرَضَ عَنِّي، فلمَّا عَاد إليَّ ذكَرتُ لَه ذاك، فلمَّا كانَ فِي الثَّالِثة ذكَرتُ له، فقَال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ! لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امرَأَةٍ مِنكُنَّ غَيرِهَا**»[22].

◇ **أنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَحَرَّونَ بهَدَايَاهُم يَومَهَا تَقَرُّبًا إِلَى النَّبيِّ ﷺ:** كَمَا فِي الحَدِيثِ السَّابق.

◇ **أنَّ لَهَا فَضلا عَلَى النِّسَاءِ:** فعَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَال: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: «**فَضلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[23].

(19) البخاري (5077).

(20) أي: يتقربون إلى النَّبيِّ ﷺ إذا كان عندها.

(21) أي: أَزوَاج النَّبيِّ ﷺ، وفي روايةِ مُسلِم: أَنَّهنَّ أَرسَلْنَ فَاطِمَةَ، ثُمَّ زَينَب بنتَ جَحشٍ رضي الله عنها.

(22) البخاري (3775)، والترمذي (3879 - مشهور).

(23) البخاري (3770)، ومسلم (2446).

قَالَ العَلاَّمَةُ ابنُ القَيِّم رحمه الله: «وَاختُلِفَ فِي تَفضِيلِهَا - أَي خَدِيجَة - عَلَى عَائِشَة رضي الله عنها عَلَى ثَلاثَةِ أَقوَالٍ، ثَالِثُها الوَقفُ، وسَأَلت شَيخَنا ابنَ تَيمِيَّة رحمه الله، فَقَال: اختَصَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنهُما بخَاصَّةٍ؛ فَخَدِيجَة كَانَ تَأثِيرُها فِي أوَّلِ الإسلام، وَكَانَت تُسَلِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَتُثَبِّتُه وَتُسَكِّنُه، وَتَبذُلُ دُونَهُ مَالَهَا، فَأَدرَكَت غرّة الإسلام واحتملت الأذى في اللَّه وفي رسوله، وكان نُصرَتُها لِلرَّسُول ﷺ فِي أَعظَمِ أَوقَاتِ الحَاجَة، فَلَها مِنَ النُّصرَةِ والبَذلِ مَا لَيسَ لِغَيرِها، وَعَائِشَة رضي الله عنها تَأثِيرُهَا فِي آخِرِ الإِسلام؛ فَلَها مِن التَّفَقُّه فِي الدِّين، وَتَبلِيغِه إِلَى الأُمَّةِ، وَانتِفَاعِ بَنِيهَا بمَا أَدَّت إِلَيهم مِنَ العِلمِ مَا لَيسَ لِغَيرِهَا، هَذَا مَعنَى كَلامِه»[24].

◇ **أَنَّ جِبرِيلَ عليه السلام أَقرَأَهَا السَّلامَ:** فعَن عَائِشَة رضي الله عنها قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يومًا: «**يَا عَائِشُ! هَذَا جبرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ**»، فقُلتُ: وعَلَيهِ السَّلامُ وَرَحمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لا أَرَى - تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ -[25].

◇ **أَنَّها لَمَّا نَزَلَت آيَةُ التَّخيير اختَارَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ:** فعَن عَائِشَة رضي الله عنها قَالَت: لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بتَخيِيرِ أَزوَاجِهِ بَدَأَ بي؛ فَقَالَ: «**إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمرًا، فَلا عَلَيكِ أَن لا تَعجَلِي حَتَّى تَستَأمِرِي أَبَوَيكِ**»، قَالَت: وَقَد عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَم يَكُونَا

(24) «جلاء الأفهام» (ص263 - المجمع).

(25) البخاري (3768)، ومسلم (2447)، والتِّرمذي (3881).

يَأمُرَانِي بفِرَاقِهِ، قَالَت: ثُمَّ قَالَ: «**إنَّ اللهَ ـ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ـ قَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ **إلَى** ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: 29]»، قَالَت: فَقُلتُ: فَفي أَيِّ هَذَا أَستَأمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، قَالَت: ثُمَّ فَعَلَ أَزوَاجُ النَّبيِّ ﷺ مِثلَ مَا فَعَلْتُ[26].

◇ **أَنَّ شَأنَهَا عِندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيمٌ:** وَمَا قِصَّةُ الإفكِ إلا دَلِيلٌ عَلَيهِ؛ فقد بَرَّأَهَا اللّهُ مِمَّا رَمَاهَا بهِ أَهلُ الإِفكِ بوَحيٍ يُتلَى إِلَى يَومِ القِيَامَة، وَشَهِدَ لَهَا بأَنَّهَا مِنَ الطَّيِّباتِ؛ فَقَال تَعَالَى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: 26]، وَوَعَدَها المَغفِرَةَ وَالرِّزقَ الكَرِيمَ؛ فقَال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [سبأ: 4]، وَأَخبَر تَعَالَى أَنَّ مَا قِيلَ فِيهَا مِنَ الإفكِ كَانَ خَيرًا لَهَا، وَلَم يَكُن شَرًّا، وَلا عَارًا، فَقَال: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [النور: 11].

◇ **أَنَّهَا كَانَت سَبَبًا[27] فِي كَثِيرٍ مِنَ البَرَكَاتِ:** فعن عُروَة بنِ الزُّبَير رحمه الله عن عائِشة رضي الله عنها أنَّها استَعارَت مِن أَسماءَ قِلادةً فهَلَكَت[28]، فأَرسَلَ رَسُولُ اللّه ﷺ ناسًا مِن أَصحابه فِي طَلَبِها، فَأَدرَكَتهُم الصَّلاةُ، فَصلَّوا بغَير وُضُوءٍ، فَلَمَّا أَتَوا النَّبيَّ ﷺ شَكَوا ذلِك إِلَيه، فَنَزَلَت آيةُ التَّيمُّمِ، فقَالَ أُسَيدُ بنُ حُضَير: جَزاكِ اللّهُ خَيرًا؛ فَوَاللّهِ مَا نَزَل بكِ أَمرٌ قَطُّ إلاَّ جَعَل اللّهُ لكِ مِنه مخرَجًا، وجَعَل لِلمُسلِمِين فيه بَرَكَةً[29].

◇ **أَنَّ أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كَانُوا يَستَفتُونَهَا؛ فَيَجِدُونَ عِلْمَ النَّبِيِّ ﷺ عِندَهَا:** فعن أَبي مُوسَى الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: مَا أَشكَلَ عَلَينَا ـ أَصحَابَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ـ حَدِيثٌ قَطُّ فَسَأَلنَا عَائِشَةَ إلاَّ وَجَدنَا عِندَهَا مِنهُ عِلمًا[30].

ومَعَ هذِهِ الفَضَائِل ـ وهِيَ كَثِيرَةٌ ـ ظَهَر الرَّوافِضُ ـ لَعَنَهمُ اللّهُ ـ؛ فسَارُوا عَلَى طَرِيق أَسلافِهم مِن المنَافِقِين واليَهُود، فأَعظَمُوا الفِريَة علَى عائِشَة رضي الله عنها، واتَّهمُوا فِرَاشَ النَّبيِّ ﷺ.

فنَعُوذُ باللّهِ مِمَّن يَشنَأُ عَائِشَةَ رضي الله عنها حَبيبَةَ رَسُولِ اللّه ﷺ، الطَّيِّبَةَ المُبَرَّأَة، الصِّدِّيقَةَ ابنَةَ الصِّدِّيق، أمَّ المؤمِنِين، رضِيَ اللّهُ عَنهَا وَعَن أَبيها خَلِيفَةِ رَسُولِ اللّه ﷺ[31].

📖 حُكمُ مَن سَبَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها:

اتَّفق الفُقَهاءُ عَلَى أَنَّ مَن قَذَف عَائِشَة رضي الله عنها فَقَد كَذَّب صَرِيحَ القُرآنِ الَّذِي نَزَل بحَقِّهَا، وَهُوَ بذَلِك كَافِرٌ بَعدَ أَن بَرَّأَهَا اللّهُ مِنهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ إِلَى قَوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧﴾

(26) البخاري (4786) تعليقًا، ومسلم (1475).

(27) أمَّا البركة الجسديَّة فهي خاصَّة بالنَّبيِّ ﷺ، وانظر: «التَّبرُّك المشرُوع والتَّبرُّك الممنُوع» للعلياني.

(28) أي ضاعت.

(29) البخاري (3773)، ومسلم (367).

(30) الترمذي (3883 ـ مشهور)، وصححه الإمام الألباني رحمه الله.

(31) «كتاب الشَّريعة» (4/119).

[النور: 11 - 17][32].

أَمَّا إن كَانَ السَّبُّ بغَير القَذفِ لِعَائِشَة رضي الله عنها أَو غَيرِهَا مِن أُمَّهاتِ المُؤمِنِينَ؛ فَالسَّابُّ يُؤَدَّب، فَفَرْقٌ بَين القَذفِ وبَينَ السَّبِّ بغَير القَذفِ، وَهُو مَا يُؤخَذ مِن كَلام عَامَّة الفُقَهاء، وَإِن لم يُصرِّحُوا بذَلِك[33].

قال القَاضِي عِيَاضٌ المَالِكِيُّ رحمه الله (ت: 544هـ): رُوِيَ عَن مَالِكٍ: مَن سَبَّ أَبَا بَكرٍ جُلِدَ، وَمَن سَبَّ عَائِشَةَ قُتِلَ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟! قَالَ: مَن رَمَاهَا فَقَد خَالَفَ القُرآنَ.

وذَكَرَ تَعَالَى مَا نَسَبَهُ المنافِقُونَ إِلَى عَائِشَة، فَقَالَ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾، سَبَّح نَفسَهُ فِي تَنزِيهِا[34] مِنَ السُّوءِ، كَمَا سَبَّحَ نَفسَهُ فِي تَبرِئَتِهِ مِنَ السُّوءِ، وَهَذَا يَشهَدُ لِقَولِ مَالِكٍ فِي قَتلِ مَن سَبَّ عَائِشَة رضي الله عنها.

وَمَعنَى هَذَا - وَاللهُ أَعلَمُ - أَنَّ اللهَ تَعَالَى لمَّا عَظَّم سَبَّهَا كَمَا عَظَّم سَبَّه، وَكَانَ سَبُّها سَبًّا لِنَبِيِّه ﷺ، وَقَرَنَ سبَّ نَبِيِّه ﷺ وَأَذَاهُ بِأَذَاهُ تَعَالَى، وَكَانَ حُكمُ مُؤذِيهِ تَعَالَى القَتلَ، لو] كَانَ مُؤذِي نَبِيِّه كَذَلِك»[35].

(32) «الموسوعة الكويتية» (22/185 - ردة)، و(33/22 - قذف).

(33) «الموسوعة الكويتية» (24/139- سبّ) باختِصار.

(34) أي عائشة رضي الله عنها.

(35) «الشِّفا في التَّعريف بحُقُوق المصطفَى» (ص878) بتصرُّفٍ يَسيرٍ.

قال القَاضِي أَبُو يَعلَى: «مَن قَذَف عَائِشَة بمَا بَرَّأَها اللهُ مِنهُ كَفَر بلا خِلافٍ»[36].

قال شَيخُ الإِسلام رحمه الله (ت: 728هـ): «وَقَد حَكَى الإِجمَاعَ عَلَى هَذَا غَيرُ وَاحِدٍ، وَصرَّحَ غَيرُ وَاحِدٍ مِن الأَئِمَّةِ بهَذا الحُكمِ»[37].

وعَدَّدَ الإِمامُ النَّوَوِي رحمه الله (ت: 676هـ) فَوائِدَ حَدِيثِ الإِفك؛ فَذَكَر مِنهَا: «بَرَاءَة عَائِشَة رضي الله عنها مِن الإِفكِ، وَهِي بَرَاءَةٌ قَطعِيَّةٌ بنصِّ القُرآنِ العَزِيز، فَلَو تَشَكَّكَ فِيهَا إِنسَانٌ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ - صَارَ كَافِرًا مُرتَدًّا بِإِجمَاعِ المُسلِمِين، قَال ابنُ عَبَّاسٍ وغَيرُه: لَمْ تَزْنِ امرَأَةُ نَبِيٍّ مِنَ الأَنبِيَاء - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِم أَجمَعِين -، وَهَذَا إِكرَامٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - لَهُم»[38].

وقَال الإِمَامُ ابنُ عُثَيمِين رحمه الله (ت: 1421هـ): «قَذفُ عَائِشَة رضي الله عنها بِمَا بَرَّأَهَا اللهُ مِنهُ كُفرٌ؛ لأَنَّهُ تَكذِيبٌ لِلقُرآنِ، وَفِي قَذفِ غَيرِهَا مِن أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ قَولانِ لأَهلِ العِلمِ: أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ كُفرٌ؛ لأَنَّهُ قَدحٌ فِي النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ الخَبِيثَاتِ لِلخَبِيثِينَ»[39].

وقَد سَجَّلَ التَّارِيخُ قَتلَ مَن قَذَفَ عَائِشَةَ رضي الله عنها بمَا بَرَّأَهَا اللهُ مِنهُ[40]:

(36) «الصارم المسلول» (3/1050).

(37) «الصارم المسلول» (3/1050).

(38) «شرح مسلم» (17/117).

(39) «تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد» (ص 82).

(40) «الصارم المسلول» (3/1050).

قَالَ أَبُو بَكرِ بنُ زِيَاد النَّيسَابُورِي رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعتُ القَاسِمِ بنَ محمَّدٍ يَقُولُ لإسمَاعِيلَ بن إسحَاق: أُتِيَ المَأمُونُ بالرِّقَّة برَجُلَين؛ شَتَمَ أَحدُهُما فَاطِمَةَ، وَالآخَرُ عَائِشَةَ، فَأَمَر بقَتلِ الَّذِي شَتَم فَاطِمَة، وَتَرَك الآخَر، قَالَ إسمَاعِيلُ: مَا حُكمُهُمَا إلاَّ أن يُقتَلا؛ لأنَّ الَّذِي شَتَم عَائِشَةَ رَدَّ القُرآنَ.

وَعَلَى هَذَا مَضَت سِيرَةُ أَهلِ الفِقهِ وَالعِلمِ؛ مِن أَهلِ البَيتِ وَغَيرِهِم.

قَال أَبُو السَّائِب القَاضِي رَحِمَهُ اللهُ: كُنتُ يَومًا بحَضرَةِ الحَسَن بنِ زَيدٍ الدَّاعِي بطَبَرِستَان، وَكَان يَلبَسُ الصُّوفَ، وَيَأمُر بالمَعرُوفِ وَيَنهَى عَن المُنكَر، وَيُوجِّه في كُلِّ سَنَةٍ بعِشرِينَ أَلفِ دِينَارٍ إلَى مَدِينَةِ السَّلامِ؛ يُفَرَّقُ عَلَى سَائِرِ وَلَدِ الصَّحَابَة، وَكَانَ بحَضرَتِه رَجُلٌ ذَكَر عَائِشَة بذِكرٍ قَبيحٍ مِنَ الفَاحِشَة، فَقَال: يَا غُلامُ! اِضربْ عُنُقَه، فَقَالَ لَهُ العَلَوِيُّونَ: هَذَا رَجُلٌ مِن شِيعَتِنَا، فَقَال: مَعَاذَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ طَعَن في النَّبيِّ ﷺ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿**ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾**﴾ [النور: 26]، فَإن كَانَت عَائِشَة خَبيثَةً فَالنَّبيُّ ﷺ خَبيثٌ، فَهُو كَافِرٌ، فَاضرِبُوا عُنُقَه، فَضَرَبُوا عُنُقَه وَأَنَا حَاضِر.

ورُوِيَ عَن محمَّدِ بنِ زَيدٍ ـ أَخِي الحَسَن ابنِ زَيدٍ ـ أَنَّه قَدِمَ عَلَيهِ رَجُلٌ مِنَ العِرَاق، فَذَكَر عَائِشَة بسُوءٍ، فَقَامَ إلَيهِ بعَمُودٍ فَضَرَبَ بهِ دِمَاغَهُ فَقَتَلَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا مِن شِيعَتِنَا وَمِمَّن يَتَولاَّنَا، فَقَال: هَذَا سَمَّى جَدِّي قَرْنَان[41]، وَمَن سَمَّى جَدِّي قَرنَانَ استَحَقَّ القَتلَ، فَقَتَلَهُ.

فَالوَاجِبُ عَلَى المُسلِم ـ بَعدَ هَذَا ـ أَن يَجعَلَ حُبَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا نُصبَ عَينَيهِ، فَإنَّ حُبَّها دَلِيلٌ عَلَى حُبِّ النَّبيِّ ﷺ؛ فَقَد قَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا: «**أَيْ بُنَيَّة! أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟!**» قَالَت: بَلَى، قَالَ: «**فأَحِبِّي هَذِهِ**»[42].

وَلْيَحذَرِ المُسلِمُ مِن رَوَاسِبِ الدَّولَةِ العُبَيدِيَّة الرَّافِضِيَّة؛ كَقَولِ العَوَامِّ في وَصفِ المَرأَةِ المُتَرَجِّلَةِ: «عِيشَة رَاجَلْ»، أَو «يومَ العِيدِ نَذبَحُ عِيشَة وَسْعِيدْ»، وَغَيرُهَا كَثِيرٌ، مِمَّا فِيهِ رَائِحَةُ الرَّفضِ، وَلَعَلَّ قَصَبَ السَّبقِ يَكُونُ لِمَن يُبَيِّن هَذِه البَقَايَا، وَ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ**﴾ [الحديد: 21].

وَالحَمدُ للَّهِ أَوَّلا وَآخِرًا، وَالعِلمُ عِندَ اللَّهِ تَعَالَى.



(41) هو الَّذي لا غيرة له.

(42) مسلم (2442).

حكم بيع حلي الذهب والفضة بالتقسيط

ـ الجزء الثاني ـ

فؤاد عطاء الله
طالب في مرحلة الماجستير بكلية العلوم الإسلامية. جامعة الجزائر

الحمد لله القائل في محكم التَّنزيل ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، والصَّلاة والسَّلام على الصَّادق المصدوق، المصرِّح بأنَّ آكلَ الرِّبا، وموكِلَه، وكاتبَه، وشاهدَيه من الملعونين[1]، أمَّا بعد:

المطلب الثالث:

أدلة الجمهور على وجوب التقابض والتماثل في بيع الحلي ومناقشتها.

استدلَّ الجمهور لمذهبهم من الكتاب، والسُّنَّة، وعمل الصَّحابة، والإجماع، والنَّظر الصَّحيح:

*** أدلَّة الجمهور من الكتاب:**

استدلوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وجه الدّلالة من الآيات الكَريمات؛ أنَّ الله تعالى صرَّح فيها بتحريم الرِّبَا، وصرَّح بأنَّ المتعامل بالرِّبا محارب لله تعالى، وبأنَّ آكل الرِّبا لا يقوم، أي: من قبره يوم القيامة، إلاَّ كما يقوم الَّذي يتخبَّطه الشَّيطان من المسِّ[2]، والرِّبا في اللُّغة الزِّيادة مطلقا[3]، ثمَّ إنَّ الشَّرع قد تصرَّف في هذا الإطلاق، فقصره على بعض موارده، والرِّبا الَّذي عليه عرف الشَّرع شيئان:

(1) مسلم (1598) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(2) الشّنقيطي: «أضواء البيان» (1/271 ـ بكر).

(3) ابن منظور: «لسان العرب»: مادَّة (ربا) (14/304).

تحريم النَّساء، وتحريم التَّفاضل في النُّقود وفي المطعومات[4]، ولا شكَّ أنَّ الذَّهب والفضَّة هما أصل النُّقود والأثمان، ودليل تحريم التَّفاضل والنَّساء فيهما عامٌّ، لم يفرِّق بين المصنوع وغير المصنوع، وقارئ هذه الآيات يفزع من الاقتراب من شبهة الرِّبَا، فضلاً عن الرِّبَا نفسه[5].

يمكن أن يجاب عن هذا الاستدلال بأنَّه خارج عن محلِّ النزاع؛ لأنَّ الإمامين ابن تيميَّة وابن القيِّم ـ رحمهما الله ـ لا يُنكران حرمة الرِّبا، ولا يستصغران مغبَّة اقترافه، إلاَّ أنَّهما لا يريان بيع الحليِّ المصوغ بأوزنَ منه، ويكون الزَّائد مقابل الصَّنعة، صورةً من صور الرِّبا المحرَّم بنصِّ الآيات الكريمات[6].

*** أدلَّة الجمهور من السُّنَّة:**

ثبتت في السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة أحاديثُ كثيرةٌ، عن جمع من الصَّحابة رضي الله عنهم، وبطرق متعدِّدة، ومناسبات مختلفة، تحرِّم كلُّها ربا الفضل وربا النَّسيئة في الذَّهب والفضَّة، وتجمع تلك الأحاديث عبارات: «يدًا بيد»، «وزنًا بوزن»، «مثلاً بمثل»، وهي:

أحاديث أبي سعيد الخدريِّ؛ كحديث الأعيان السِّتَّة[7]، وأحاديث الصَّرف[8]، وأحاديث بيع التَّمر الرَّديء بالجيِّد[9]، وحديث عُبَادةَ بن الصَّامت في الأعيان السِّتَّة[10]، وحديث أسامةَ بن زيد: «**إنَّمَا الرِّبَا في النَّسيئةِ**»[11]، وحديث أبي بكرة نُفَيع ابن الحارث في الصَّرف[12]، وأحاديث أبي هريرة[13] في تقسيم الأعيان الرِّبويَّة إلى مجموعتين: الأطعمة الأربعة والأثمان، وأحاديث عمر بن الخطَّاب في الصَّرف[14]، وحديث علي بن أبي طالب في الصَّرف[15]، وحديث عثمان بن عفَّان في الصَّرف[16]، وحديث معمر ابن عبد الله في تحريم ربا الفضل في الشَّعير بالشَّعير[17].

وأحاديث عبد الله بن عمر؛ كحديث اقتضاء الذَّهب من الورِقِ[18]، وحديث الإحسان في أداء

(4) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (4/382 ـ التُّركي).

(5) النَّووي: «المجموع» (9/390).

(6) ابن قيِّم الجوزية: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/406).

(7) مسلم (1584).

(8) البخاري (2068).

(9) البخاري (2089)، مسلم: (1593).

(10) مسلم (1584).

(11) البخاري (2178)، مسلم (1596)، قال النَّووي رحمه الله: «أجمع العلماء على ترك العمل بظاهره»، انظر: «شرح صحيح مسلم» (6/22)، ونفي تحريم ربا الفضل من حديث أسامة رضي الله عنه، إنَّما هو بالمفهوم، فيقدَّم عليه حديث أبي سعيد رضي الله عنه؛ لأنَّ دلالته بالمنطوق، ويحمل حديث أسامة رضي الله عنه على الرِّبا الأكبر والأغلظ والأشدِّ.

(12) البخاري (2066)، مسلم (1590).

(13) مسلم (1588).

(14) البخاري (2065)، مسلم (1586).

(15) انفرد به ابن ماجه (2261 ـ مشهور)، وصحَّحه العلاَّمة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(16) مسلم (1585).

(17) مسلم (1592).

(18) التِّرمذي (1242)، النَّسائي (4582)، أبو داود (3354)، ابن ماجه (2262)، وضعَّفه العلاَّمة الألباني مرفوعًا، وأعلَّه بسماك بن حرب، وحسَّن إسناده من رواية النَّسائي موقوفًا عن ابن عمر رضي الله عنه، انظر: «إرواء الغليل» (1326).

القرض[19]، وحديث منع ربا الفضل في الذَّهب المصوغ وإنكاره على الصَّائغ[20]، وحديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم في الصَّرف[21]، وحديث فَضَالَة ابن عبيد في بيع القلادة[22]، وحديث سعد بن أبي وقَّاص في بيع الرُّطب بالتَّمر[23]، وحديث أنس بن مالك[24]، وحديث أمِّ المؤمنين عائشة[25]، وحديث أمَّهات المؤمنين[26]، وحديث أبي بكر الصِّدِّيق[27] وغيرهم من الصَّحابة ـ رضي الله عنهم جميعا ـ[28].

ممَّا يُستفاد من هذه الأحاديث مجتمعةً؛ تحريم ربا الفضل وربا النَّسيئة في الذَّهب والفضَّة.

أمَّا ربا الفضل فيكون عند اتِّحاد الجنس (ذهب بذهب)، والتَّفاضل المحظور هو زيادة كميَّة في مقدار أحد البدلين، وفي حالة وجود فرق يعتدُّ به في قيمة البدلين، دلَّ الشَّرع على عدم مقايضتهما مباشرة؛ لأنَّها توقع في ربا الفضل، بل يباع البدلان بالنُّقود، ويشتري الطَّرفان الصِّنف الَّذي يريد[29].

أمَّا ربا النَّساء؛ فيسري حيث يطبَّق ربا الفضل دائمًا، ويتَّسع في الصَّرف والمقايضة حتَّى عند اختلاف الجنس (ذهب بفضة أو ذهب بنقود)، فيجب تسليم البدلين عند التَّعاقد، بينما يتوقَّف عمل ربا النَّسيئة باستخدام النَّقد مع السِّلع الأخرى.

وسأذكر الآن أقوى وأصرح الأحاديث الَّتي تقوِّي مذهب الجمهور، وتعارض مذهب الإمامين في مسألة ربويَّة حليّ الذَّهب والفضَّة، وهي:

الحديث الأوَّل: عَنْ مَالِكِ بنِ أَوْسٍ، أَخْبَرَ أَنَّهُ التَمَسَ صَرْفًا بمِائَةِ دِينَارٍ، قال: فَدَعَانِي طَلْحَةُ ابنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَتَرَاوَضْنَا[30]، حتَّى اصْطَرَفَ مِنِّي، فَأَخَذَ الذَّهبَ يُقَلِّبُهَا فِي يَدِه، ثُمَّ قَالَ: حتَّى يَأْتِيَ خَازِنِي مِن الغَابَةِ، وَعُمَرُ (هُوَ أميرُ المؤمنين) يَسْمَعُ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ، لا تُفَارِقُهُ حتَّى تَأْخُذَ مِنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الذَّهَبُ بالذَّهَبِ رِبًا،**

(19) «الموطَّأ» برواية اللَّيثي (1990 ـ بشَّار عواد).

(20) «الموطأ برواياته الثَّمانيَّة» (1440)، وصحَّحه محقِّقه سليم الهلالي، «مسند الإمام أحمد» (8936 ـ شعيب)، «السُّنن الكبرى» للبيهقي (279/5)، «مصنَّف الإمام عبد الرَّزَّاق» (14574).

(21) البخاري (2070)، مسلم (1589).

(22) مسلم (1591).

(23) البخاري (1943)، مسلم (1536).

(24) ابن حزم: «المحلَّى» (441/7).

(25) «مصنَّف ابن أبي شيبة» (22496).

(26) «مسند الإمام أحمد» (22330 ـ شعيب)، وقال محقِّق «المسند»: «إسناده ضعيف جدًّا، أبو جعفر الرَّازي سيِّئ الحفظ، ويحيى بن مسلم البكاء ضعيف متروك الحديث، لكن متنه صحيح عن غير واحد من الصَّحابة».

(27) «مصنَّف الإمام عبد الرَّزَّاق» (14569)، قال الهيثمي: «رواه أبو يعلى والبزَّار، وفي إسناد البزَّار حفص ابن حفص، قال الذَّهبي: ليس بالقويِّ، وفي إسناد أبي يعلى محمَّد بن السَّائب الكلبي نعوذ بالله ممَّا نسب إليه من القبائح». [«مجمع الزَّوائد» (115/4)]

(28) انظر: محمَّد بن علي بن حسين الحريري: «أحاديث ربا الفضل وأثرها في العلَّة والحكمة»: «مجلَّة البحوث الإسلاميَّة» (ع52، رجب ـ شوَّال 1418 هـ).

(29) ابن عابدين: «ردُّ المحتار» (202/4).

(30) تراوضنا: تجاذبنا في البيع والشِّراء، وهو ما يجري بين المتبايعين من الزِّيادة والنُّقصان، كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يروِّض صاحبه من رياضة الدَّابَّة، وقيل: هي المواصفة بالسِّلعة، وهو أن تصفها وتمدحها عنده. [ابن الأثير: «النِّهاية» (277/2).

إلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالبُرُّ بالبُرِّ رِبًا، إلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالشَّعيرُ بالشَّعيرِ رِبًا، إلاَّ هَاءَ وَهَاءَ، وَالتَّمْرُ بالتَّمْرِ رِبًا، إلاَّ هَاءَ وَهَاءَ»[31].

ووجه الدِّلالة من الحديث؛ أنَّ لفظ «الذَّهب» عام، يشمل جميع أنواعه، وإخراج الحليِّ من عموم هذا الحكم تخصيصٌ دون مخصِّص، قال الإمام النَّووي رحمه الله: «قوله ﷺ **«لاَ تَبيعُوا الذَّهَبَ بالذَّهَبِ، وَلاَ الوَرِق بالوَرِقِ إلاَّ سَوَاءً بسَوَاءٍ»**[32]، قال العلماء: هذا يتناول جميع أنواع الذَّهب والورق من جيِّد، ورديء، وصحيح، ومكسور، وحليّ، وتبر، وغير ذلك، وسواء الخالص، والمخلوط بغيره، وهذا كلُّه مجمع عليه[33]»[34]، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله معلِّقاً على هذا الحديث: «والذَّهب يطلق على جميع أنواعه المضروبة، وغيرها، والوَرِق: الفضَّة،... والمراد هنا جميع أنواع الفضَّة مضروبة، وغير مضروبة»[35].

الحديث الثَّاني: حديث أبي سَعِيدٍ رضي الله عنه في الصَّرْفِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«لاَ تَبيعُوا الذَّهَبَ بالذَّهَبِ إلاَّ مِثْلاً بمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبيعُوا الوَرِقَ بالوَرِقِ إلاَّ مِثْلاً بمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بنَاجِزٍ»**[36].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله موضِّحًا قوله ﷺ: «**الذَّهب بالذَّهب**»: «ويدخل في الذَّهب جميع أصنافه من مضروب، ومنقوش، وجيِّد، ورديء، وصحيح، ومكسَّر، وحلي، وتبر، وخالص، ومغشوش، ونقل النَّووي تبعًا لغيره في ذلك الإجماع»[37].

وقد أجاب ابن القيم رحمه الله بأنَّ هذه الأحاديث ليس فيها ما هو صريح في المنع، وغايتها، أن تكون عامَّة، أو مطلقة [38].

وتُعُقِّب بأن قوله غير مسلَّم؛ لأنَّ الأحاديث المانعة كثيرة، وهي على ضربين:

الضَّرب الأوَّل: أحاديث عامَّة، فيها النَّهي عن بيع الذَّهب بالذَّهب إلاَّ مثلاً بمثل، كحديث عبادة، وحديث أبي سعيد، وحديث عمر، وغيرهم من الصَّحابة رضي الله عنهم، وهذه الأحاديث صريحة في المنع، وغاية الأمر أنَّها عامَّة، والمنطوق العامُّ صريح، إلاَّ أنَّ دلالته على أفراده من قبيل الظَّاهر، فيعمل بعمومه في كلِّ فرد منها، ما لم يخرج من العموم بدليل معتبر[39].

---

(31) البخاري (2065)، مسلم (1586).

(32) مسلم (1584) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(33) حكى هذا الإجماع الإمام ابن عبد البرِّ رضي الله عنه في: «الاستذكار» (192/19)، وابن رشد الحفيد في «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» (318/2)، ونقله الحافظ ابن حجر عن الإمام النَّووي رحمه الله، انظر: «فتح الباري» (479/4).

(34) النَّووي: «شرح صحيح مسلم» (14/11)، وانظر: «فتح الباري» (476/4).

(35) ابن حجر: «فتح الباري» (476/4).

(36) البخاري (2068)، ومسلم (1584).

(37) ابن حجر: «فتح الباري» (479/4).

(38) «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (406/3).

(39) محمَّد سليمان عبد الله الأشقر، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، «مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز»: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420 هـ، 2000م)، (ص158).

والضَّرب الثَّاني: من تلك الأحاديث، هي الأحاديث الخاصَّة كحديث القلادة، وحديث تمر خيبر، وحديث ابن عمر مع الصَّائغ، وهي أحاديث صريحة، لا تحتاج إلى بيان، أو توضيح.

الحديث الثَّالث: عَنْ أَبي قِلابَةَ، قَالَ: كُنْتُ بالشَّامِ، فِي حَلْقَةٍ فِيهَا مُسْلِمُ بنُ يَسَارٍ، فَجَاءَ أَبُو الأَشْعَثِ، قَالَ: قَالُوا: أَبُو الأَشْعَثِ، أَبُو الأَشْعَثِ، فَجَلَسَ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْ أَخَانَا حَدِيثَ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ، قَالَ: نَعَمْ، غَزَوْنَا غَزَاةً، وَعَلَى النَّاس مُعَاوِيَةُ، فَغَنِمْنَا غَنَائِمَ كَثِيرَةً، فَكَانَ فِيمَا غَنِمْنَا آنِيَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَأَمَرَ مُعَاوِيَةُ رَجُلاً أَنْ يَبِيعَهَا فِي أَعْطِيَاتِ النَّاس، فَتَسَارَعَ النَّاس فِي ذَلِكَ، فَبَلَغَ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِتِ؛ فَقَامَ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**يَنْهَى عَنْ بَيْعِ الذَّهب بالذَّهب، وَالفضَّة بالفضَّة، وَالبُرِّ بالبُرِّ، وَالشَّعِيرِ بالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرِ بالتَّمْرِ، وَالمِلْحِ بالمِلْحِ إلاَّ سَوَاءً بسَوَاءٍ، عَيْنًا بعَيْنٍ، فَمَنْ زَادَ، أَوْ ازْدَادَ، فَقَدْ أَرْبَى**»، فَرَدَّ النَّاس مَا أَخَذُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَقَامَ خَطِيبًا، فَقَالَ: أَلا، مَا بَالُ رِجَالٍ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَحَادِيثَ قَدْ كُنَّا نَشْهَدُهُ، وَنَصْحَبُهُ، فَلَمْ نَسْمَعْهَا مِنْهُ، فَقَامَ عُبَادَةُ ابنُ الصَّامِتِ فَأَعَادَ القِصَّةَ، ثُمَّ قَالَ: لَنُحَدِّثَنَّ بمَا سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنْ كَرِهَ مُعَاوِيَةُ، - أَوْ قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ -، مَا أُبَالِي أَنْ لا أَصْحَبَهُ فِي جُنْدِهِ، لَيْلَةً سَوْدَاءَ»[40].

قال الإمام النَّووي رحمه الله: «قوله: «فَرَدَّ النَّاس مَا أَخَذُوا»، هذا دليل على أنَّ البيع المذكور باطل»[41]، ولا شكَّ أنَّ بطلان هذا البيع، كان بسبب التَّفاضل الَّذي حصل في بيع الآنية الذَّهبيَّة بالذَّهب، فدلَّ على أنَّ الصّنعة لا تقابل بالزِّيادة.

وأجاب الإمامان - رحمهما الله - بأنَّ عبادة رضي الله عنه، إنَّما أنكر على معاوية رضي الله عنه، بيع الآنية، إذ أنَّه يقتضي مقابلة الصِّياغة المحرَّمة بالأثمان، ومعلوم أنَّ صياغتها، واستعمالها محرَّم، وهذا لا يجوز كآلات الملاهي، ولم ينكر عبادة رضي الله عنه التَّفاضل في بيع الآنية بأكثر من وزنها من الذَّهب[42].

ويردُّ على جوابهما بأنَّ عبادة رضي الله عنه، إنَّما أنكر على معاوية رضي الله عنه، بيع الذَّهب بمثله متفاضلاً، والدَّليل على ذلك احتجاجه بنهي النَّبيّ ﷺ، عن بيع الذَّهب بالذَّهب إلاَّ مثلا بمثل، ولو كان إنكاره رضي الله عنه متَّجها لبيع الآنية؛ لاستشهد بنهي النَّبيِّ ﷺ عن الشُّرب في آنية الذَّهب، والفضَّة[43]؛ لأنَّ السِّياق لا يستقيم، إذا اعتبرنا إنكار عبادة متَّجهًا لبيع الآنية، ويصير استدلاله بحديث النَّهي عن الرِّبا في الأصناف الرِّبويَّة السِّتَّة استدلالاً في غير موضعه، قال أبو الوليد الباجي رحمه الله: «ما ذهب إليه معاوية، من بيع سقاية

(40) مسلم (1587).

(41) «شرح صحيح مسلم» (11/18).

(42) ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (2/622)، ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/405).

(43) كحديث أمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ، أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الفضَّة، وَالذَّهب، إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ**»، البخاري (5311)، مسلم (2065)، واللَّفظ له.



الذَّهب بأكثر من وزنها، يحتمل أن يرى في ذلك ما رآه ابن عبَّاس، من تجويز التَّفاضل في الذَّهب نقدًا، ويحتمل أن يكون لا يرى ذلك، ولكنَّه جوَّز التَّفاضل بين المصوغ منه، وغيره، لمعنى الصِّياغة، وقول أبي الدَّرداء[44] سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، أنكر عليه فعله من تجويزه التَّفاضل في الذَّهب...»[45].

الحديث الرَّابع: عَن يَحْيَى بنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ قَالَ: **أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّعْدَيْنِ (وهما سعد ابن أبي وقَّاص وسعد بن عبادة رضي الله عنهما) أَنْ يَبِيعَا آنِيَةً مِنَ الْمَغَانِمِ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ فِضَّةٍ، فَبَاعَا كُلَّ ثَلاثَةٍ بِأَرْبَعَةٍ عَيْنًا، أَوْ كُلَّ أَرْبَعَةٍ بِثَلاثَةٍ عَيْنًا، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَيْتُمَا فَرُدَّا»**[46].

في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يعتبر قيمة الصَّنعة في الآنية، وجعل التَّفاضل في بيعها من قبيل الرِّبَا، قال الإمام ابن عبد البرِّ رحمه الله: «ومعنى هذا الحديث، يتَّصل من حديث عبادة، وغيره عن النَّبيِّ ﷺ، وأجمع العلماء على أنَّ الذَّهب تبره، وعينه، سواء، لا يجوز التَّفاضل في شيء منه، وكذلك الفضَّة بالفضَّة تبرها وعينها، ومصنوع ذلك كله ومضروبه لا يحلُّ التَّفاضل في شيء منه، وعلى ذلك مضى السَّلف من العلماء، والخلف، إلاَّ شيئًا يسيرًا، يروى عن معاوية من وجوه»[47].

الحديث الخامس: عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، فَجَاءَهُ صَائِغٌ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! إِنِّي أَصُوغُ الذَّهب، ثُمَّ أَبِيعُ الشَّيْءَ مِنْ ذَلِكَ بِأَكْثَرَ مِنْ وَزْنِهِ، فَأَسْتَفْضِلُ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ عَمَلِ يَدِي، فَنَهَاهُ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ الصَّائِغُ يُرَدِّدُ عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ يَنْهَاهُ، حتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، أَوْ إِلَى دَابَّةٍ، يُرِيدُ أَنْ يَرْكَبَهَا، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابنُ عُمَرَ: «الدِّينَارُ بالدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمُ بالدِّرْهَمِ، لا فَضْلَ بَيْنَهُمَا، هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إِلَيْنَا، وَعَهْدُنَا إِلَيْكُمْ»[48].

هذا الحديث صريح في محلِّ النِّزاع، فإنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنكر على هذا الصَّائغ بيع الذَّهب بأكثر من وزنه، من أجل الصِّياغة.

الحديث السَّادس: عَنْ فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِخَيْبَرَ بِقِلادَةٍ فِيهَا خَرَزٌ، وَذَهَبٌ، وَهِيَ مِنْ الْمَغَانِمِ، تُبَاعُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بالذَّهب الَّذِي فِي القِلادَةِ، فَنُزِعَ وَحْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«الذَّهب بالذَّهب، وَزْنًا بِوَزْنٍ»**[49].

(44) جاء في رواية «الموطأ» أنَّ الَّذي أنكر على معاوية هو أبو الدَّرداء رضي الله عنه، انظر: «الموطأ برواياته الثَّمانية»: (1442)، وضعَّفه محقِّقه سليم الهلالي، قال ابن عبد البرِّ: «ظاهر هذا الحديث الانقطاع؛ لأنَّ عطاء لا أحفظ له سماعًا من أبي الدَّرداء، توفي بالشَّام في خلافة عثمان، لسنتين بقيتا من خلافته» [«التَّمهيد» (71/4)، وانظر: ابن التركماني: «الجوهر النقي» (280/5).

(45) الباجي: «المنتقى» (261/4، 262).

(46) «الموطأ» برواياته الثَّمانية: (1437)، قال محقِّقه سليم الهلالي: «سنده ضعيف لإرساله أو إعضاله».

(47) ابن عبد البرِّ: «الاستذكار» (193/19).

(48) «الموطأ برواياته الثَّمانية»: (1440)، وصحَّحه محقِّقه سليم الهلالي، «مسند الإمام أحمد»: (8936 ـ شعيب)، «السُّنن الكبرى» للبيهقي: (279/5)، «مصنَّف الإمام عبد الرَّزَّاق» (14575).

(49) مسلم (1591).

وهذا الحديث ـ أيضًا ـ صريح في محلِّ النِّزاع؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أوجب التَّماثل بين القلادة، وما بيعت به من الذَّهب، مع أنَّ القلادة من الحليِّ، وليست من النُّقود، ولو كان للصِّياغة اعتبار، لما ألغى النَّبيُّ ﷺ عمل الصَّائغ في القلادة[50].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً عَلَى خَيْبَرَ، فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟»**، قَالَ: لا، وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ، وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلاثَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لاَ تَفْعَلْ بِعِ الجَمْعَ** ـ وهو: الخلط من التَّمر ـ **بالدَّراهم ثُمَّ ابْتَعْ بالدَّراهم جَنِيبًا»**[51].

ووجه الاستدلال بالحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن التَّفاضل عند مقايضة التَّمر الجيِّد بالرَّديء؛ لأنَّ الصِّفات لا تقابل بالزِّيادة، وكذلك حليّ الذَّهب والفضَّة.

واستدلُّوا من النَّظر الصَّحيح: بأنَّ الصِّفات لا تقابل بالزِّيادة، ولو قُوبلت بها، لجاز بيع الفضَّة الجيِّدة بأكثر منها، من الرَّديئة، وبيع التَّمر الجيِّد بأزيد منه، من الرَّديء، ولمَّا أبطل الشَّارع ذلك، علم أنَّه منع من مقابلة الصِّفات بالزِّيادة[52].

وأجاب الإمام ابن القيِّم رحمه الله بأنَّ هناك فرقًا «بين الصَّنعة، الَّتي هي أثر فعل الآدميِّ، وتقابل بالأثمان، ويستحقُّ عليها الأجرة، وبين الصِّفة، الَّتي هي مخلوقة لله، لا أثر للعبد فيها، ولا هي من صنعته، فالشَّارع بحكمته، وعدله، منع من مقابلة هذه الصِّفة بزيادة، إذ ذلك يفضي إلى نقض ما شرعه من المنع من التَّفاضل... وهذا بخلاف الصِّياغة الَّتي جوَّز لهم المعاوضة عليها معه»[53].

المطلب الرابع:
أدلة شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيِّم ـ رحمهما الله ـ ومناقشتها.

استدلَّ الإمامان لمذهبهما بجملةٍ من الأدلَّة، هي:

الدَّليل الأوَّل: الحاجة: وذلك أنَّ ربا الفضل حرِّم سدًّا للذَّريعة، وما حرِّم سدًّا للذَّريعة أخفُّ ممَّا حرِّم تحريم المقاصد، ولذلك أبيح منه ما تدعو إليه المصلحة الرَّاجحة، وهي حاجة النَّاس، كما أبيحت العرايا[54]؛ لحاجة النَّاس إلى التَّفكُّه بالرُّطب، وعليه فيجوز بيع الحلية المباحة

(50) علي أحمد السالوس: تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حلي الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، لم12، (1420 هـ، 2000م)، (ص141)، صالح بن زابن المرزوقي، تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة: (ع9، 1417هـ، 1996م، (172/1).

(51) البخاري (2089)، مسلم (1593).

(52) ابن قيم الجوزية: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (409/3).

(53) المصدر السَّابق (409/3، 410).

(54) العرايا: جمع عريَّة، وهي النَّخلة يعريها صاحبها، أي: يأتيها غيره ليأكل من ثمرها، وفي الاصطلاح: بيع الرُّطب على النَّخل بتمر في الأرض فيما دون خمسة أوسق، انظر: «الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة» (91/9).



بجنسها تفاضلا[55].

وأجيب بأنَّه لا يسلِّم أنَّ ربا الفضل حرِّم سدًّا للذَّريعة[56]، ثمَّ لو سلَّمنا بذلك فإنَّ الإمامين - رحمهما الله - ما وقفا عند إباحة التَّفاضل في بيع الحليِّ، بل ذهبا إلى جواز النَّساء أيضًا بشرط أن لا يقصد الثَّمنيَّة في الحلي، ومعلوم أنَّ ربا النَّسيئة محرَّم تحريم المقاصد، كما أنَّ مصلحة رفع الحرج عن تجَّار الذَّهب، تعتبر من قبيل المصالح الخاصَّة، ومعلوم أنَّ المصلحة الخاصَّة لا تخصِّص النُّصوص، حتَّى عند المالكيَّة القائلين بالتَّخصيص بالمصلحة المرسلة[57].

الدَّليل الثَّاني: رفع الحرج عن النَّاس: جواز التَّفاضل والنَّساء في بيع الحليِّ، يرفع الحرج والمشقَّة على النَّاس، وبتحريمه لم يبقَ إلاَّ أن يُقال: لا يجوز بيع الحليِّ بجنسها ألبتَّة، بل يبيعها بجنس آخر، وفي هذا من العسر ما تنفيه الشَّريعة، وتكليف الاستصناع لكلِّ من احتاج إلى الحليِّ، إمَّا متعذِّر، أو متعسِّر، والحيل باطلة في الشَّرع[58].

وقد أجيب عن دعوى رفع الحرج على النَّاس؛ بأنَّ هذه المشقَّة ربَّما كانت موجودة في زمان الإمام ابن القيِّم رحمه الله، فربَّما كان في مذهب الإمامين إذ ذاك تيسير؛ لأنَّ الأثمان كانت عندهم الذَّهب، والفضَّة، أمَّا الآن، والأثمان في أيدي النَّاس هي النُّقود الورقيَّة، فأيُّ مشقَّة توجد بينها، وبين المصنوعات الذَّهبيَّة، بالنسبة إلى البيع الفوري؟[59].

وأمَّا القول بأنَّه لم يبق إلاَّ أن يُقال: إنَّه لا يجوز بيع الحليِّ بجنسها ألبتَّة، بل يبيعها بجنس آخر، وفي هذا من الحرج، والعسر، والمشقَّة، ما تنفيه الشَّريعة.

فيُجاب عنه: بأن هذا هو عيْن ما أثبتته الشَّريعة، لا ما نفته، وهو ما أرشد إليه النَّبيُّ ﷺ، عندما أمر ببيع التَّمر الرَّديء بثمن، أو سلعة، وبها يَشْتَرِي التَّمر الجيِّد، ومثل هذا التَّصرُّف يكون في جميع الأموال الرِّبويَّة.

وأمَّا القول بأنَّ تكليف الاستصناع لكلِّ من احتاج إلى الحليِّ، إمَّا متعذِّر، أو متعسِّر، والحيل باطلة في الشَّرع.

(55) ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (2/622)، ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/405).

(56) محمَّد سليمان عبد الله الأشقر، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلاميّ، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص164).

(57) ناجي بن محمَّد شفيق عجم، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص172).

(58) ابن قيِّم الجوزية: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/405، 406)، ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (2/ 622).

(59) محمَّد سليمان عبد الله الأشقر، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص156).

فقد أجيب عنه بأنَّ المخارج الشَّرعيَّة ليست من الحيل الباطلة، وعقد الاستصناع أحد هذه المخارج، فإمَّا أن يبيع الحليَّ بجنسه تماثلاً، أو أن يبيعها بثمن، ويشتري به ما يريد شراءه من الحليِّ، أو يلجأ إلى عقد الاستصناع[60]، ولو جوَّزنا بيع الحليِّ بالذَّهب تفاضلاً؛ للحاجة، فإنَّنا نفتح الباب أمام من يقول: إنَّ الحاجة تدعو إلى إسقاط وجوب التَّماثل في بيع الطَّعام أيضًا، كالتَّمر، والبرِّ، والشَّعير، وغيرها، إذ الحاجة إلى الطَّعام أشدُّ من الحاجة إلى الحليِّ؛ لأنَّ الطَّعام ضروريٌّ لحياة الإنسان، بخلاف الحليِّ فلا يستعمله إلا النِّساء[61].

الدَّليل الثَّالث: إنَّ الحلية المباحة صارت بالصَّنعة المباحة، من جنس الثِّياب، لا من جنس الأثمان، فلا يجري الرِّبَا بينها، وبين الأثمان، كما لا يجري بين الأثمان، وبين سائر السِّلع[62].

أجيب عنه من وجوه:

الأوَّل: أنَّ هذا القول تردُّه الأحاديث الَّتي استدلَّ بها الجمهور، ولأنَّ الشَّارع منع الزِّيادة، ولم يُقِم اعتبارًا للجودة، والصِّناعة، كما في حديث القلادة، وحديث تمر خيبر.

الثَّاني: إنَّ البحث عن علَّة الرِّبَا في الذَّهب، إنَّما هو لإلحاق غير الذَّهب بالذَّهب في جريان أحكام الرِّبَا، وليس للحكم على الأصل، فحكم الأصل ثابت بالنَّصِّ، ولا يحتاج إلى تعليل، وإنَّما التَّعليل للإلحاق، فإذا لم نجد العلَّة في الأصل، فليس معنى هذا أن نُبطل الحكم الشَّرعي الثَّابت للأصل بالنصِّ، فذلك ممتنع في باب تعليل الأحكام، ومن المعلوم أنَّ الحليَّ ثبت حكمها بالنَّصِّ، مع أنَّها ليست ثمنًا، وهذا ممَّا أُخذ على التَّعليل بالثَّمنيَّة، ومن الخطإ الجسيم، أن نجعل البحث عن العلَّة للحكم على الأصل، فنبقي الحكم للمقيس على الأصل، وهو في زمننا الأوراق النَّقديَّة، وننزع الحكم من حليِّ الذَّهب، ونبطل العمل بالنَّصِّ[63].

الدَّليل الرَّابع: لا يجري الرِّبَا في الحليِّ، قياسًا على عدم وجوب الزَّكاة فيها، عند الجمهور[64].

وأجيب بأنَّ هذا القياس غير صحيح؛ لأنَّ

(60) علي أحمد السَّالوس، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص150).

(61) صالح بن زابن المرزوقي، تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمَّع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة، (ع9، (1417هـ، 1996م)، (186/1).

(62) ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (623/2، 624)، ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (407/3).

(63) عبد الوهَّاب بن محمَّد ريحاوي، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص170)، علي أحمد السَّالوس، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12، (1420هـ، 2000م)، (ص147).

(64) ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (623/2)، ابن قيِّم الجوزية: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (407/3).

من شرط الأصل في القياس أن يكون منصوصًا على حكمه، وحكم زكاة الحليِّ محلُّ اختلاف بين أهل العلم[65]، والرَّاجح وجوب الزَّكاة في الحليِّ عملاً بالنُّصوص الخاصَّة، والعامَّة، الواردة في الباب، ثمَّ إنَّه ليس هناك علاقة، ولا موافقة، بين الرِّبَا، والزَّكاة، لا من حيث الأموال، ولا من حيث الأحكام، وعليه فلا مانع من أن يكون الحليُّ ربويًّا، ولا يكون زكويًّا[66].

الدَّليل الخامس: بيع الحلية المباحة بوزنها، من غير زيادة ثمن الصَّنعة، لا يقدم عليه عاقل؛ لأنَّه سفه، وإضاعة للمال[67].

وأجيب بأنَّ هذا الاستدلال عقليٌّ، ومثله يمكن أن يُقال في بيع التَّمر الجيِّد بالرَّديء، ونحن نرى أنَّ التَّمر أنواع متعدِّدة، قيمة بعضها عشرات قيمة أنواع أخرى، فلو بيعت بوزنها من جنسها، فإنَّه سَفَهٌ، وإضاعةٌ للمال، ومع ذلك فكلُّ زيادة هنا، تكون من الرِّبَا المحرَّم، كما بيَّن النَّبيُّ ﷺ في حديث تمر خيبر[68]، ويمكن أن يُقال مثل هذا الاستدلال، أيضًا في بيع المضروب بالتّبر؛ لأنَّ الضَّرب نوع من الصَّنعة، وفيه زيادة عمل، والإمامان ـ رحمهما الله ـ يوافقان على أنَّه لا يجوز بيع المضروب بالتّبر، إلاَّ متماثلاً، وحالاً، فكيف صار إهدار الصَّنعة في الحليِّ سفهًا؟ وفي المضروب رشدًا؟[69].

الدَّليل السَّادس: القياس على قيمة الإتلاف حال الغصب: ومعنى ذلك أنَّ من غصب حلية، وتلفت عنده، فيجب عليه ضمان وزن الحلية، وثمن صياغتها، فلمَّا وجب مقابلة الصِّناعة بعِوَض في الضَّمان، وجب أيضًا مقابلة الصِّناعة بعوض في البيع[70].

أجيب بأنَّه قياس في مقابلة النَّصِّ، كما أنَّه لا توجد علَّة مشتركة بين المقيس، والمقيس عليه، ففي حالة ضمان المتلف صورة البيع منتفية تمامًا؛ لأنَّ الإتلاف لا يتمُّ برضَا الطَّرفين

(65) انظر: أقوال الفقهاء في مسألة زكاة الحليِّ المستعمل في: الكاساني: «بدائع الصَّنائع» (2/105، 106)، العيني: «البناية في شرح الهداية» (3/442 ـ 446)، سحنون ابن سعيد: «المدونة الكبرى» (1/211)، الحطاب: «مواهب الجليل» (3/150)، «حاشية الدسوقي مع الشرح الكبير» (2/49)، الإمام الشَّافعي: «الأم» (2/41)، الشِّيرازي: «المهذب مع المجموع» (6/32)، ابن قدامة: «المغني» (2/605، 606)، المرداوي: «الإنصاف» (3/138)، ابن النَّجَّار الفتوحي: «معونة أولي النُّهى» (2/681)، ابن حزم: «المحلَّى» (4/184).

(66) صالح بن زابن المرزوقي: تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمَّع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة، (ع9)، (1417هـ، 1996م) (1/188).

(67) ابن تيميَّة: «تفسير آيات أشكلت» (2/622)، ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/405، 406).

(68) علي أحمد السَّالوس، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12)، (1420هـ، 2000م)، (ص150).

(69) صالح بن زابن المرزوقي: تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة، (ع9)، (1417هـ، 1996م)، (1/186، 187).

(70) ابن قيِّم الجوزية: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين (3/408).

ـ المتلِف، وصاحب الحلية المتلَفة ـ كما هو في البيع، كما أنَّ تضمين الغاصب ليس من قبيل البيع، بل من قبيل تضمين المعتدي[71]، ومعلوم أنَّ الرِّبَا لا يدخل جميع العقود، وإنَّما يدخل عقودًا مخصوصة، وهي: البيع، والسَّلم، والقرض، ولا يدخل ضمان الإتلاف، قال الإمام ابن حزم رحمه الله: «والرِّبَا لا يكون إلا في بيع، أو قرض، أو سلم، وهذا ما لا خلاف فيه من أحد[72]؛ لأنَّه لم تأت النُّصوص إلاَّ بذلك، ولا حرام إلاَّ ما فصِّل تحريمه»[73].

الدَّليل السَّابع: إباحة التَّفاضل والنَّساء في بيع الحليِّ من قبيل تخصيص العام، وتقييد المطلق بالقياس الجليِّ، وفي هذا توفية الأدلَّة حقَّها، وليس فيه مخالفة بشيء لدليل منها»[74].

أجيب عنه من وجوه:

الأوَّل: إنَّه اجتهاد في مقابلة النَّصِّ، ومعلوم أنَّ القياس لا يُصار إليه إلاَّ عند انتفاء التَّنصيص على المسألة، ومسألتنا هذه وردت فيها نصوص عامَّة، وخاصَّة، تنهى عن بيع الذَّهب بالذَّهب إلاَّ مثلاً بمثل، وعليه فلا مكان للقياس هنا.

(71) صالح بن زابن المرزوقي: تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة، (ع9)، (1417هـ، 1996م)، (188/1).

(72) نقل هذا الإجماع أيضًا ابن رشد الحفيد في «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» (217/2).

(73) ابن حزم: «المحلَّى» (401/7).

(74) ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (406/3، 407).

الثَّاني: على التَّسليم بقاعدة تخصيص العامِّ، وتقييد المطلق بالقياس الجليِّ؛ وإن كانت محلَّ خلاف بين العلماء، فالقاعدة غير منطبقة على الدَّعوى، وذلك لما يأتي:

أ ـ قياس الحليِّ على العرايا لا يصحُّ؛ لأنَّ جواز العرايا ورد استثناءً بنصٍّ خاصٍّ[75]، وقد اشترط جمهور الفقهاء والأصوليِّين، في الأصل المقيس عليه، ألاَّ يكون معدولاً به عن سَنَنِ القياس.

ب ـ إنَّ قياس الحليِّ على العرايا، ليس قياسًا جليًّا؛ لأنَّه لا يتَّفق مع تعريف القياس الجليِّ، فقد قيل في تعريفه أنَّه «ما علم من غير معاناة، وفكر»، وقيل: أنَّه «ما عرفت علَّته قطعًا، إمَّا نص أو إجماع»، وقيل: هو «ما يكون معناه في الفرع زائدًا على معنى الأصل»[76].

وكلُّ هذه التَّعاريف لا تصدق على قياس الحليِّ على العرايا؛ لأنَّه لا يساويه فضلاً عن أن يكون أولى منه.

ج ـ إنَّ تخصيص العامِّ بالقياس الجليِّ يصحُّ عند انعدام دليلٍ خاصٍّ في المسألة، وهذا غير متحقِّق؛ لأنَّ الأدلَّة الَّتي استدلَّ بها الجمهور، منها ما هو عامٌّ يدخله التَّخصيص، ومنها ما هو خاصٌّ، لا سبيل لتخصيصه بالقياس، كحديث القلادة، وحديث تمر خيبر، وحديث ابن عمر

(75) وهو ما صَحَّ عَنْ زَيْدِ بنِ ثَابتٍ رضي الله عنه «**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ** صلى الله عليه وسلم **رَخَّصَ فِي العَرَايَا أَنْ تُبَاعَ بِخَرْصِهَا كَيْلاً**»، قَالَ مُوسَى ابنُ عُقْبَةَ: «وَالعَرَايَا نَخَلاتٌ مَعْلُومَاتٌ تَأْتِيهَا فَتَشْتَرِيهَا»، البخاري (2080)، ومسلم (1539).

(76) الزَّركشي: «البحر المحيط» (33/4).

رضي الله عنهما مع الصَّائغ[77].

الدَّليل الثَّامن: لا يعرف عن أحد من الصَّحابة؛ أنَّه نهى أن يباع الحليّ إلاَّ بغير جنسه، أو بوزنه من جنسه، والمنقول عنهم إنَّما هو في الصَّرف[78].

أجيب بأنَّ الحجَّة في قول النَّبيِّ ﷺ، وليست في قول الصَّحابة رضي الله عنهم، ومع ذلك فقد ثبت النَّهي عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، عندما سُئل عن بيع قلادة فيها ذهب، وورق، وجوهر، فمنع ذلك رضي الله عنه، وأمر بفصلها، قبل بيعها، وثبت عن عبادة رضي الله عنه، أنَّه أنكر على معاوية رضي الله عنه، بيع آنية الذَّهب تفاضلاً، كما أنَّ عمر رضي الله عنه حمل معاوية رضي الله عنه على ما ذهب إليه عبادة رضي الله عنه، ووافقه على إنكار صنيع معاوية رضي الله عنه، وأنكر ابن عمر رضي الله عنهما على الصَّائغ، أن يستفضل عمل يده[79].

الدَّليل التَّاسع: القياس على الإجارة على صناعة الحليِّ في عقد الاستصناع؛ ومعنى ذلك: أنَّه لما جاز إعطاء أجرة الصِّياغة للصَّائغ، إذا طُلِبَ منه صناعة الحليِّ بشكل معيَّن، وعلى نحوٍ معيَّن، فكذلك يكون لتلك الصِّياغة مقابل عند بيع الحليِّ بجنسها[80].

وأجيب بأن هذا غير مسلَّم؛ لأنَّ الأجرة في عقد الاستصناع، إنَّما جازت؛ لمقابلتها لعمل الصَّائغ، وهذا غير متحقِّق في بيع الحليِّ؛ لأنَّ المشتري لا يعقد عقد إجارة، وجواز الأجرة للصَّائغ عندما تكون مستقلَّة عن عوض الذَّهب، الَّذي يُراد صياغته، لا يلزم منه جواز الأجرة مضمومًا إليها عوض الذَّهب المراد صياغته، وذلك لأنَّ للاجتماع تأثيرًا في الأشياء، لا يكون في حالة الانفراد.

الدَّليل العاشر: أيَّد بعض المعاصرين[81] مذهب الإمامين بما قاله الإمام ابن قدامة المقدسي رحمه الله: «إن قال لصائغ: صُغ لي خاتمًا، وزنه درهم، وأعطيك مثل وزنه، وأجرَتك درهمًا، فليس ذلك ببيع درهم بدرهمين، وقال أصحابنا: للصَّائغ أخذ الدِّرهمين، أحدهما: في مقابل الخاتم، والثَّاني: أجرة له»[82].

وأجيب بأنَّ إعطاء الأجرة على الصِّياغة

(77) صالح بن زابن المرزوقي: تجارة الذَّهب، مجلَّة المجمَّع الفقهي الإسلامي، الدَّورة التَّاسعة، (ع9)، (1417هـ، 1996م)، (1/182 ـ 186).

(78) ابن قيم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/408).

(79) علي أحمد السَّالوس: تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12)، (1420هـ، 2000م)، (ص150)، محمَّد سليمان عبد الله الأشقر: تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12)، (1420هـ، 2000م)، (ص159).

(80) ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (3/410).

(81) رفيق بن يونس المصري: «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز، الاقتصاد الإسلامي، (م9)، (1417هـ، 1997م)، (ص42).

(82) ابن قدامة: «المغني» (4/130).

يخرجه من باب البيع الرِّبوي عند الحنابلة، وهذه المسألة محلُّ خلاف بين العلماء، وهي مسألة الجمع بين البيع والإجارة في بيع الرِّبوي[83].

الدَّليل الثَّاني عشر: أيَّد أحد المعاصرين[84] مذهب الإمامين بقياس حليِّ الذَّهب على الخبز، بجامع الصَّنعة، في كلٍّ منهما، وذلك استنادًا إلى ما ذهب إليه بعض العلماء، من أنَّ الرِّبوي يخرج بالصِّناعة عن كونه ربويًّا، كالخبز مثلاً، فإنَّ أصله ربويٌّ، وهو البُرُّ، فهل تجري أحكام الرِّبَا على الخبز؟ أم أنَّ الصِّنعة تخرجه من الأصناف الرِّبويَّة؟[85].

وأجيب عن هذا الاستدلال بأنَّ فيه خلطًا بين مسألتين: مسألة المصنوع من الذَّهب، والفضَّة، ومسألة المصنوع من غيرهما.

فالمسألة الأولى محلُّ إجماع عند العلماء، وأمَّا المسألة الثَّانية فهي محلُّ خلاف، ولا يجوز الخلط بين المسألتين[86]، وقد كان حفيد ابن رشد رحمه الله ذكيًّا عندما فرَّق بين المسألتين، فنقل الإجماع على المسألة الأولى[87]، واختلاف الأئمَّة في المسألة الثَّانية[88]، يُؤيِّد ذلك، أنَّ الإمام ابن القيِّم رحمه الله نفسه، يرى أنَّ فروع الأجناس الأربعة، إنْ خرج عن كونه قوتًا، لم يكن من الرِّبويَّات، وإن لم يخرج عن كونه قوتًا؛ كان جنسًا قائمًا بنفسه، وحرم بيعه بجنسه، الَّذي هو مثله متفاضلاً، كالدَّقيق بالدَّقيق، والخبز بالخبز[89].

كما أنَّ قياس الحليِّ على الخبز قياسٌ مع الفارق، وذلك من ناحيتين:

الأولى: اختلاف أثر الصَّنعة بين الخبز، والحليِّ، فالصَّنعة في الخبز أخرجته كليًّا عن صفة القمح، وصار اسمه خبزًا، ودخول الصَّنعة عليه دائم مستمرٌّ؛ إذ لا يمكن إرجاعه إلى أصله، وهو القمح، بعكس حليِّ الذَّهب، فالصَّنعة لم تخرجها عن أصلها، بل بقيت على أصلها، وهو أنَّها ذهب، والثَّمنيَّة باقية في الحليِّ بالصَّنعة الَّتي دخلت عليها؛ لأنَّ دخول الصَّنعة مؤقَّت، غير جوهري، ويمكن إرجاعه إلى أصله ذهبًا، إذا زالت الرَّغبة في الحليِّ.

الثَّانية: اختلاف علَّة الرِّبَا في الذَّهب،

---

(83) انظر أقوال الفقهاء في مسألة الجمع بين البيع والإجارة في بيع الرِّبوي في:
السرخسي: المبسوط (48/14)، الحطاب: «مواهب الجليل» (152/6)، «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (53/4)، الإمام الشَّافعي: «الأم» (65/4)، ابن السبكي: «تكملة المجموع» (87/10)، ابن قدامة: «المغني» (130/4)، ابن رجب الحنبلي: «مجموعة رسائل ابن رجب، أحكام الخواتيم» (721/2، 722).

(84) رفيق بن يونس المصري: أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (مجلد 9)، (1417هـ، 1997م)، (ص55).

(85) ذهب أبو حنيفة إلى الثَّاني، وذهب الشَّافعي إلى الأوَّل، واختلف النَّقل عن الإمام مالك، انظر: ابن رشد الحفيد: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» (229/2، 230).

(86) محمَّد سليمان عبد الله الأشقر، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12)، (1420هـ، 2000م)، (ص164).

(87) ابن رشد الحفيد: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» (318/2).

(88) المصدر السَّابق (229/2، 230).

(89) ابن قيِّم الجوزيَّة: «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» (411/3).

والفضَّة، من جهة، والأصناف الرِّبويَّة الأربعة من جهة أخرى، فقد قسَّم الفقهاء الأصناف الرِّبويَّة باعتبار علَّة الرِّبَا إلى قسمين، وعليه فلا يمكن قياس الحليِّ على الخبز؛ لأنَّ علَّة الرِّبَا فيهما مختلفة[90].

المطلب الخامس:

سبب الخلاف والقول المختار.

يرجع اختلاف العلماء في مسألة جريان الرِّبا في حليِّ الذَّهب والفضَّة إلى سببين:

الأوَّل: اختلاف العلماء في دخول الحليِّ في عموم النُّصوص النَّاهية عن الرِّبا في الذَّهب، والفضَّة، فمن رأى دخولها في العموم قال بجريان الرِّبا في الحليِّ، ومن رأى عدم دخولها في العموم، قال بعدم جريانه.

الثَّاني: اختلاف العلماء في مسألة تخصيص العامِّ بالمصلحة، فمن رأى الجواز ذهب إلى عدم جريان الرِّبا في الحليِّ، ومن رأى عدم جواز ذلك، ذهب إلى جريان الرِّبا في الحليِّ[91].

والحاصل من خلال عرض أدلَّة الفريقين، أنَّ الرَّاجح في هذه المسألة هو قول جمهور العلماء، بجريان الرِّبا في الحليِّ، وبناءً عليه فلا يجوز بيع الحليِّ الذَّهبيَّة بجنسها تفاضلاً، كما لا يجوز بيعها نسيئة، ولا يجوز بيع الحليِّ بالتَّقسيط، وذلك لأنَّ مذهب الجمهور تسنده نصوص نبويَّة صريحة، وصحيحة، وعامَّة، وخاصَّة، وهو القول الَّذي يتوافق مع عمل الصَّحابة رضي الله عنهم، وانعقد عليه الإجماع، وهو السَّائد حاليًا، الَّذي درج عليه غالبيَّة المسلمين الملتزمين بالشَّريعة في معاملاتهم الماليَّة، وصدرت بموجبه قرارات في مجامع فقهيَّة، كما صدرت على وفقه كثيرٌ من الفتاوى الشَّرعيَّة[92].

وأمَّا مذهب الإمامين ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم ـ رحمهما الله ـ فلا يستند إلى نصٍّ صريح، من الكتاب، والسُّنَّة، وكلّ القياسات الَّتي اعتمدًا عليها ضعيفة، ظهر بطلانها من خلال مناقشتها.

وبناءً على ما تقدَّم؛ فإنَّه لا يجوز في وقتنا الحاضر الإفتاء بمذهب الإمامين ـ على جلالة قدرهما، وعلوِّ كعبيهما، رحمهما الله ـ، بل الواجب اعتبار قولهما من زلاَّت العلماء، ومعلوم أنَّ من تتبَّع زلاَّت العلماء اجتمع فيه الشَّرُّ كلُّه، أسأل الله تعالى أن يجزي الإمامين أجر الاجتهاد.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله، وصحبه، وإخوانه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

(90) عبد الوهَّاب بن محمَّد ريحاوي، تعليق على بحث «أحكام بيع وشراء حليِّ الذَّهب والفضَّة»، مجلَّة جامعة الملك عبد العزيز: الاقتصاد الإسلامي، (م12)، (1420هـ، 2000م)، (ص168).

(91) أفادنيه شيخنا الفاضل أبو عبد المعزّ محمَّد علي فركوس ـ حفظه المولى تبارك وتعالى ـ.

(92) الشَّيخ محمَّد علي فركوس: «فتاوى شرعيَّة»، مجلَّة الإصلاح، العدد السَّابع: محرم ـ صفر 1429هـ، (ص55).

تَبليغُ الرِّسالةِ عِصمةٌ من الأَعْدَاءِ

عبد المالك رمضاني
المدينة النبوية

يَفرُّ كَثيرٌ من النَّاس مِن مَنصبِ الدَّعوةِ إلى اللَّه على ما ورَدَ فيه من فَضْل وتَرغيبٍ، لاَ خَوفًا من مَسئوليَّته ولاَ تَورُّعًا من تَبعاتِه، ولكن تَوهُّمًا منهم أنَّ ذَلكَ يَجلبُ لهم المَتاعبَ، ويَملأُ حَياتَهم بالمَصائبِ؛ لأنَّ أَكثرَ المَدعوِّين لاَ يَرضَونَ بانتِقادِهم أو الاعتِراض علَيهم، وقَليلٌ من عِبادِ اللَّه مَن يَقبلُ النُّصحَ، كما حكَى اللَّهُ ﷻ عن رَسوله صالح ﷺ أنَّه قالَ لقَومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79]، بل يَفرُّونَ من دَعوةِ النَّاس خَوفًا مِن أن يَزيدَهم ذلكَ بُغضًا ﴿ قُلوبِهم ومُحارَبةً من قِبَلِهم وتَسلُّطًا بأَنواعِ الأَذيَّة، فبالنَّظرِ إلى مِثل هَذه المشقَّة فقَد آثَروا مُجاملةَ الخَلق على دَعوتِهم إلى الحقِّ، وفضَّلوا السَّلاَمةَ على الدُّخول فيمَا يَجلبُ لهم المَلامة، وتَواصَوا بقَولِ القائل: اترُكْ تُترَك! وسلِّمْ تَسلَم! أي سلِّمْ للنَّاس ما هم فيه من عَقائد وأَديانٍ وعاداتٍ وجارِهم علَيها ولو خالفَت الشَّرعَ المُطهَّر تَسلَم من ملاحقتهم لك بالمضارَّة واللَّوم، ويَتوهَّمونَ أنَّه لاَ خلاَصَ لهم مِنْهم إلاَّ بالسُّكوتِ عنهم ومُجاراتِهم على ما يَكونونَ علَيْه من حقٍّ وباطِل، ولكِن ﴿ الحَقيقةِ أنَّه بقَدْرِ مَا يَدعو المَرءُ إلى اللَّه بقَدْرِ مَا يَدفعُ اللَّهُ عنهُ من العُدوان، ويَكونُ له منه الحِفظُ والسُّلوانُ، وهذا قاعدةٌ عَظيمةٌ نبَّهَ علَيها كَثيرًا ابنُ تَيمية وتلميذاه ابنُ القيِّم وابنُ كَثير رحمَهم اللَّهُ جَميعاً، ومِن أدلَّتها:

1. قَولُ اللَّه تَعالى ﴿ سورةِ (المائدَة: 67): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾، قالَ ابن كثير عندَ تفسيرها: «أي بلِّغ أنتَ رسالتي وأنا حافظُك وناصرُك ومؤيِّدُك على أعدائك ومُظفِرك بهم، فلا تخف ولا تحزن؛ فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَس»، ثمَّ استدلَّ بما رَواه البُخاري (2729) ومسلم (2410) وغيرُهما عن عائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «سَهِرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَقْدمَهُ المَدِينَةَ لَيْلَةً، فَقَالَ: **لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَصْحَابي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ**، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلاَحٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: سَعْدُ ابنُ

أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ: **مَا جَاءَ بِكَ؟** قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللّه ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ، ثُمَّ نَام»، وهَذا الَّذي حصَلَ يُعدُّ من المُوافَقاتِ العَجيبةِ؛ لأنَّ سَعدًا رضي الله عنه قامَ بحِراسةِ النَّبيِّ ﷺ من غيرِ أن يَأمرَه النَّبيُّ ﷺ، ولاَ ريبَ أنَّه مِن حِفظِ اللّه لنبيِّه ﷺ بسببِ قِيامِه بالتَّبليغِ وإن كانَت الآيةُ نزَلَت بعدَ هذهِ القصَّةِ بأَزمانٍ كما نبَّهَ علَيه النَّووي في «شرح مسلم (183/15)»، بدَليل ما رَواه التِّرمذي (3046) ـ وحسَّنَه الألبانيُّ في تحقيقِه علَيه ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النَّبيُّ ﷺ يُحْرَس حتَّى نزلت هذه الآية: ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾، قالت: فأخرج رَسولُ اللّه ﷺ رَأسَه من القُبَّة، وقال: **يا أيُّها النَّاس! انصرفوا؛ فقد عَصمني اللّه**».

قالَ ابنُ القيِّم رحمه الله في «جلاء الأفهام» (ص581): «فالدَّعوةُ إلى اللّه تَعالى هيَ وَظيفةُ المُرسَلين وأتباعِهم، وهُم خُلفاءُ الرُّسل في أُممِهم والنَّاسُ تَبعٌ لهم، واللّهُ سُبحانَه قد أمَرَ رَسولَه أن يُبلِّغ مَا أُنزلَ إلَيه وضمِنَ له حِفظَه وعِصمتَه مِن النَّاس، وهَكذا المُبلِّغونَ عنه مِن أُمَّتِه لهم مِن حِفظِ اللّه وعِصمتِه إيَّاهم بحسَبِ قِيامِهم بدينِه وتَبليغِهم له، وقد أَمرَ النَّبيُّ ﷺ بالتَّبليغ عنه ولَو آيةً، ودَعا لمَن بلَّغَ عَنه ولو حَديثًا، وتَبليغُ سُنَّته إلى الأُمَّة أَفضلُ مِن تَبليغ السِّهام إلى نُحورِ العدوِّ؛ لأنَّ ذلكَ التَّبليغَ يَفعلُه كَثيرٌ مِن النَّاس، وأمَّا تَبليغُ السُّنَنِ فلاَ تَقومُ به إلاَّ وَرثةُ الأَنبياءِ وخُلفاؤُهم في أُممِهم جَعلَنا اللّهُ تَعالى مِنهم بمنِّه وكرَمِه».

ولِهَذِه الآيَة نَظائرُ في الكِتابِ الكَريم، أَذكرُ منها:

2ـ قولُهُ تَعالى في سورةِ (الجن 22 ـ 23): ﴿**قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣**﴾.

وهَاتانِ الآيَتانِ من أَعظَم الآياتِ المشجِّعةِ على الدَّعوَة إلى اللّه لمَن فقَّهَه اللّهُ في دِينِه ورزَقَه الإخلاَصَ في الدَّعوةِ والعمَل؛ لأنَّ اللّهَ أخبَرَ فيهما أنَّه لاَ أحَدَ يُجيرُ العَبدَ ويَحفظُه مِمَّا يُدبَّر له منَ المَكائدِ، إلاَّ إن كانَ مُبلِّغًا عن اللّه ورَسولِه ﷺ.

قالَ ابنُ تَيمية رحمه الله في «مجموع الفتَاوَى» (27/432 ـ 433): «يَقولُ: ﴿**قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ**﴾ إن عصَيْتُه، كَما قالَ تَعالى: ﴿**قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣**﴾ [الزمر: 13]، ﴿**وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا**﴾: أي مَلجأً ألجأُ إلَيْه، ﴿**إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ**﴾: أي لاَ يُجيرُني مِنه أحَدٌ إلاَّ طاعَتُه أن أُبلِّغ مَا أُرسِلتُ به إلَيْكم، فبذَلكَ تَحصُل الإجارةُ والأَمنُ، وقيلَ أيضًا: ﴿**لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١**﴾ [سورة الجن]: لاَ أَملكُ إلاَّ تَبليغَ مَا أُرسلتُ بهِ مِنه، ومِثلُ هَذا في القُرآنِ كَثيرٌ، فتبيَّنَ أنَّ الأَمنَ مِن عَذابِ اللّه وحُصولَ السَّعادةِ إنَّما هوَ بطاعَتِه تَعالى».

3ـ وقَوله عز وجل في سورةِ (القصص: 35): ﴿**فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥**﴾، قالَ ابن كثيرٍ في «تفسيرِه»: «أي لاَ سَبيلَ لهم إلى

الوُصول إلى أذَاكما بسَبَبِ إبلاَغِكما آياتِ اللَّه».

4ـ وقوله في سورةِ (الأحزاب: 39): ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾، نوَّهَ في أوَّل الآيةِ بشأنِ المبلِّغينَ رِسالاَتِه، ثمَّ أَخبرَ في آخِرها أنَّه حَسيبٌ أي ناصرٌ ومُعينٌ، ومُناسبةُ ذلكَ ظاهرةٌ لِمَن عرفَ هذِه القاعدةَ، أي إنَّه سُبحانَه ناصرُهم ومعينُهم نَتيجةً لتفرُّغِهم لتَبليغ دينِه، ذكرَ ذلكَ ابنُ كثيرٍ عند تفسيرِ آيةِ القصص السَّابقةِ.

5ـ وقوله في سورةِ (الحجر: 94 ـ 95): ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾، قالَ ابن كثير في تَفسيرِه: «أي بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّك، ولاَ تلتفِت إلى المشركين الَّذينَ يُريدونَ أن يَصدُّوك عن آياتِ اللَّه، ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾، ولا تَخَفْهم؛ فإنَّ اللَّهَ كافِيك إيَّاهم، وحافظُك منهم».

6ـ ومنها قوله في سورة (الكهف: 27): ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾، والمُلتحَد هو المَلجأُ والمَولَى النَّاصرُ، أي هو واجدٌ مِن ربِّه مُلتحدًا «بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى النَّاس»، قالَه ابنُ كثيرٍ في «تفسيره».

7ـ ومنها قولُه في سورة (الحج: 75 ـ 76): ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾، نبَّهَ علَيه ابن كثير أيضاً رحمه الله وقالَ: «أي يَعلمُ ما يُفعَل برُسُله فيما أَرسلَهم به، فلاَ يَخفَى عليه من أُمورِهم شيءٌ... فهو سُبحانَه رَقيبٌ عليهم، شهيدٌ على ما يُقالُ لهم، حافظٌ لهم، ناصرٌ لجنابهم» ثمَّ نظَّرَ بآيةِ المائدةِ المَذكورةِ أوَّلاً.

هَذه سبعُ آياتٍ من الكِتابِ العَزيزِ جاءَت في مَعنَى قاعدةِ حِمايةِ اللَّه عز وجل لمبلِّغي رِسالاَتِه، ومَن أَرادَ أن يَستزيدَ منه زادَه اللَّهُ، ولْنَكتفِ بهَذا هُنا.

ومن السُّنَّة أَكتفي بحَديثٍ وشاهدٍ من السِّيرةِ النَّبويَّة، أمَّا الحَديثُ فهوَ حَديث يحيى مع عيسى صلى اللَّهُ عليهما وسلم، فعَنِ الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ عز وجل أَمَرَ يَحْيَى بنَ زَكَرِيَّا ـ صلَّى اللَّهُ عليهما وسلَّم ـ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ: يَا أَخِي! إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي**» الحَدِيث، رَواه أحمد وصحَّحَه الألبانيُّ في «صَحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (552)، والشَّاهدُ مِنه أنَّ يَحيى عليه السلام خافَ أن يَخسفَ اللَّهُ بهِ إن هوَ تَأخَّر عن التَّبليغ.

وأمَّا من السِّيرةِ النَّبويَّة، فمِن الشَّواهدِ القويَّةِ على مَا نَحنُ فيهِ ما كانَ من صُلْح

الحُدَيبية، فقد اشترَطَ فيه مُشركو قُريش على رَسولِ الله ﷺ وأَصحابه شُروطًا قاسيةً وظنُّوا أنَّهم بها يُضيِّقونَ على دَعوةِ الرَّسولِ ﷺ ويَضغَطون على المُسلمين ويُقلِّلون عددَهم، فقد منَعوهم من دُخولِ مكَّة لأداءِ العُمرةِ في ذلكَ العام، وقيَّدوهم بقُيودٍ أُخرَى أَذكرُ منها ما رَواه البخاري (2581) عن المِسوَر بن مَخْرمة ومَروان ابن الحَكَم قالاَ: «جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمرو فقالَ: هاتِ اكْتُبْ بَيْنَنا وبيْنَكُمْ كِتاباً فَدَعا النبيُّ ﷺ الكاتِبَ فقال النَّبيُّ ﷺ: **اكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ**، قال سُهَيْلٌ: أمَّا (الرَّحْمنُ) فَوالله ما أَدْري ما هُوَ؟ ولَكِن اكْتُبْ: (باسْمِكَ اللَّهُمَّ) كَما كُنْتَ تَكْتُبُ، فقال المُسلِمُون: واللهِ! لا نَكْتُبُهَا إلاَّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ! فقال النَّبيُّ ﷺ: **اكْتُبْ (باسْمِكَ اللَّهُمَّ)**، ثُمَّ قالَ: **هَذَا ما قاضَى علَيْهِ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ**، فقال سُهَيْلٌ: واللهِ! لَوْ كُنَّا نعْلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْنَاكَ عنِ البَيْتِ ولا قَاتَلْنَاكَ، ولكِن اكتُبْ: (مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ)، فقال النَّبيُّ ﷺ: **واللهِ! إنِّي لرَسولُ اللهِ وإنْ كَذَّبْتُمُوني! اكْتُبْ (مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ)**، قال الزُّهْرِيُّ: وذَلِكَ لِقَوْلِهِ لا يَسْأَلُوني خطَّةً يُعظِّمونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إلاَّ أعْطيْتُهُمْ إيَّاهَا، فقال لهُ النَّبيُّ ﷺ: **على أنْ تُخَلُّوا بَيْنَنا وبَيْنَ البَيْتِ فنَطُوفَ بِهِ**، فقال سُهَيْلٌ: واللهِ! لا تتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِن ذَلكَ مِنَ العامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فقال سُهَيْلٌ: وعلى أنَّهُ لا يأتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ على دِينِكَ إلاَّ رَدَدْتَهُ إلَيْنَا! قال المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كيْفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جاءَ مُسْلِمًا...».

وما رواه أيضًا (2553) عَن البرَاءِ ابن عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «صَالَحَ النَّبيُّ ﷺ المُشْرِكِينَ يَوْمَ الحُديبية علَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ: عَلَى أنَّ مَنْ أَتَاهُ مِن المُشْرِكِينَ رَدَّهُ إلَيْهِمْ ومَنْ أَتَاهُمْ مِن المُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ، وعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ ويُقِيمَ بهَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ولاَ يَدْخُلَهَا إلاَّ بجُلُبَّانِ السِّلاَحِ: السَّيْفِ والقَوْسِ ونَحْوِهِ».

والجُلُبَّان هو القِرابُ الَّتي يُوضَع فيها السِّلاَح مُغمَدًا، قالَ النَّووي في «شرح مسلم» (136/12): «قَالَ الْعُلَمَاء: وإنَّما شَرَطُوا هَذَا لِوَجْهَيْنِ، أَحَدهمَا: أَلاَّ يَظْهَر مِنْهُ دُخُول الغَالِبِينَ القَاهِرِين، والثَّانِي: أَنَّهُ إنْ عَرَضَ فِتْنَةٌ أَوْ نَحْوُهَا يَكُون فِي الاستِعْدَاد بالسِّلاَح صُعُوبَة».

وقَد قَبِل النَّبيُّ ﷺ هَذه الشُّروطَ القَاسيةَ؛ لأنَّهم اتَّفقوا مُقابِلها على بُندٍ عَظيمٍ رأَى النَّبيُّ ﷺ أنَّه يَخدمُ دَعوةَ الإسلاَم خِدمةً كَبيرةً، ألاَ وهو تَركُ الحَرب بينَهم مدَّةَ عشرِ سِنين، وإذَا تُركَت الحربُ حلَّ السِّلْمُ الَّذي بِهِ حُصولُ بَركةِ الدَّعوةِ أَعظَم من برَكةِ القِتال، كَما قد عُلِم من نَتائِج صُلْح الحُدَيبيةِ، ولذَلك صحَّ أنَّه دخَلَ في الإسلاَم في مدَّة سنتَين من بِداية تلكَ العَشر عَشرةُ آلافٍ من المُشركين، بَينما دخَلَ فيه من قَبلُ في مدَّة تسعة عشَر سنة أَلفٌ وأَربعمائَة، أي من بَدءِ بعثَةِ الرَّسولِ ﷺ إلى زَمن الصُّلح، وكانَ فيها من الحُروبِ ما كانَ فلم يُسلِم سوَى

هذا العدد، قالَ البَراءُ بنُ عَازِبٍ رضي الله عنه: **«كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللّه ﷺ يَوْمَ الحُدَيبية أَلْفًا وَأَرْبَع مِائَةٍ أَو أَكْثَرَ»** رواه البخاري (3920).

وقد أَسلمَ ذاكَ العددُ الهائلُ في تلكَ المدَّةِ القَصيرةِ؛ لأنَّ الصُّلحَ تضمَّنَ وَضْعَ الحربِ عشرَ سِنِينَ، فلمَّا كانَ السِّلمُ نَجحَت الدَّعوةُ هَذا النَّجاحَ الَّذي جعلَ المُشركِينَ يَبحَثونَ عن نَقض شُروطِ الصُّلح، وقد كانَ هَذا الاستِنباطُ من فِقه الزُّهريِّ رحمه الله، كما روَى ابنُ هِشام (322/3) بسَندٍ صَحيح عنه أنَّه قالَ: «فمَا فُتِحَ فِي الإِسْلاَمِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ؛ إنّمَا كَانَ القِتَالُ حَيْثُ التَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَت الهُدْنَةُ ووُضِعَت الحَربُ وآمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الحدِيثِ والمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بالإِسْلاَم يَعْقِلُ شَيْئًا إلاَّ دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَينِك السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الإِسْلام قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ»، وقولُه: «إنَّمَا كَانَ القِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ» مَعناه أنَّ النَّاسَ - مُسلمَهم وكافرَهم - كانُوا قَبلَ الصُّلح إذَا التَقَوا يَلتَقون غالبًا على الحَربِ بَينَهم، فكانَ عددُ الدَّاخلِين في الإسلاَم حولَ الأَلفِ والأَربعمائَة في مدَّة تَسعةَ عشرَ سنة؛ لأنَّ الحُديبية كانَت سنةَ ستٍّ بعدَ الهجرةِ مع إضافةِ ثلاَثةَ عشَر سنة قَبلَ الهجرةِ، قالَ النَّووي رحمه الله في «المجموع» (104/7): «وقد أَجمعَ المُسلِمون أنَّ الحُديبيةَ كانَت سَنَةَ ستٍّ من الهجرةِ في ذِي القعدة» ووافقَه على تأريخ السَّنَةِ بلاَ خلاَفٍ ابنُ كَثيرٍ في «البداية والنهاية» (164/4) وابن حجر في «التَّلخيص الحبير» (90/4)، فلمَّا كانَ الصُّلحُ كانَ للدَّعوةِ والبَيانِ والتَّعريفِ بالإسلاَم مَجالٌ أَرحب، وتعرَّفَ النَّاسُ على مَحاسنِه وكَمالِه فدخلوا فيه أَفواجًا، وبلَغَ عددُهم عَشرةَ آلافٍ في سنتَين فقَط، ولذَلك قَالَ ابنُ هِشَام بعد كلام الزُّهري السَّابق: «والدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيّ أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ خَرَجَ إِلَى الحُدَيبِيةِ فِي أَلْفٍ وأَرْبَعِ مِائَةٍ فِي قَوْلِ جَابرِ ابن عَبدِ اللّه، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بسَنَتَيْنِ فِي عَشَرَةِ آلاَفٍ»، وقالَ ابنُ حجَر في «الفتح» (348/5): «وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِك السَّنَتَيْنِ مِثْل مَنْ كَانَ فِي الإِسْلام قَبْل ذَلِكَ أَوْ أَكْثَر، يَعْنِي مِن صنَادِيد قُرَيْش، وممَّا ظَهَرَ مِنْ مَصْلَحَة الصُّلْح المَذْكُور غَيْر مَا ذَكَرَهُ الزُّهْرِيُّ أَنَّهُ كَانَ مُقَدِّمَةً بَيْن الفَتْح الأَعْظَم الَّذِي دَخَلَ النَّاسُ عَقِبه فِي دِين اللّه أَفْوَاجًا، وكَانَت الهُدنةُ مِفْتَاحًا لِذَلِكَ، ولَمَّا كَانَتْ قِصَّة الحُدَيْبِيَة مُقَدِّمَةً للفَتْح سُمِّيَتْ فَتْحًا كَمَا سَيَأْتِي فِي المغَازِي، فَإِنَّ الفَتْح فِي اللُّغَة فَتْح المُغْلَق، والصُّلْح كَانَ مُغْلَقًا حَتَّى فَتَحَهُ اللّهُ، وكَانَ مِنْ أَسْبَاب فَتْحه صَدُّ المُسلِمِينَ عَن البَيْت، وكَانَ فِي الصُّورَة الظَّاهِرَة ضَيْماً لِلْمُسْلِمِينَ وفِي الصُّورَة البَاطِنَة عِزًّا لَهُمْ، فَإِنَّ النَّاس لأَجْلِ الأَمْن الَّذِي وَقَعَ بَيْنهمْ اِخْتَلَطَ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ مِنْ غَيْر نَكِير، وأَسْمَعَ المُسْلِمُونَ المُشْرِكِينَ القُرْآن ونَاظَرُوهُمْ عَلَى الإِسْلام جَهْرَةً آمَنِينَ، وكَانُوا قَبْل ذَلِكَ لاَ يَتَكَلَّمُونَ عِنْدهمْ

بذَلِكَ إلاَّ خُفْيَة، وظَهَرَ مَنْ كَانَ يُخْفِي إسْلاَمَه، فَذَلَّ المُشْرِكُونَ مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا العِزَّة وأُقْهِرُوا مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الغَلَبَة».

ولذَلكَ سمَّى اللَّهُ هَذا الصُّلحَ فَتحًا في الوَقتِ الَّذي ما يَزالُ فيه النَّاسُ تحتَ ضَغطِ شُروطِه القاسيةِ، فقالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [سورة الفتح]، روى البخاري (3011) ومسلم (1785) عن سَهْل بن حُنَيْفٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ؛ فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الحُدَيبِيَةِ ولَوْ نَرَى قِتَالاً لَقَاتَلْنَا، فجَاءَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَلَسْنَا عَلَى الحقِّ وهُمْ على البَاطِلِ؟! فقَالَ: **بَلَى!** فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجنَّةِ وقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟! قَالَ: **بَلَى!** قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟! أَنَرْجِعُ ولَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟! فَقَالَ: **يَا ابنَ الخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللَّه ولَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبدًا**، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّه، ولَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبدًا، فَنزَلَتْ سُورَةُ الفتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم على عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّه! أَوَ فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: **نَعَمْ**».

وروَى البخاري (3919) عَن البرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الفتحَ فَتْحَ مَكَّةَ وقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، ونَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الحُديبية»، وكذَلكَ فسَّره أَنَسٌ رضي الله عنه رواه البخاري (3939).

ولذَلكَ لو فُرضَ أنَّ النَّاسَ اجتمَعوا في ساحةٍ واحدةٍ: مُسلمَهم ويَهوديَّهم ونَصرانيَّهم ومَجوسيَّهم، ودَعا كلٌّ إلى دينِه، لكانَت الكفَّةُ لدَعوةِ الإسلاَم في وَصفٍ مُذهلٍ لاَ يُقارَن؛ لأنَّ الإسلاَمَ يتميَّزُ باثنتَين:

الأُولى: كَمالُه وشُمولُه لجَميع مَناحِي الحَياةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، ولذَلكَ يُلاحظُ كلُّ مُنصفٍ من المُسلمِين وغَيرِهم أنَّه مَهما جدَّ في حَياةِ النَّاس من حَوادث إلاَّ وَجدوا لدَى عُلماءِ المُسلمِينَ جَوابًا لها بالأدلَّةِ الوَاضحةِ من الكِتابِ والسنَّة كأنَّما تَنزِلُ الآن! وأمَّا الأَديانُ الأُخرَى فكلَّما نظَرَ فيها النَّاظرُ وجدَ نَفسَه داخلاً في بئرٍ مُظلمةٍ لخَفاءِ الحقِّ علَيهم وفَقرِ شَريعتِهم الَّتي ضاعَ كَثيرٌ منها بينَ التَّركِ والتَّحريفِ.

الثَّانيةُ: قوَّةُ حُجَج الإسلاَم حتَّى تَكونَ بيانًا واضحًا لكلِّ مَن هو جادٌّ في طلبِ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: 138].

وهَذا بابٌ واسعٌ، وإنَّما الغرَضُ إثارةُ المَسألةِ لينَظرَ فيها مَن يَنظُرُ، ويَستَفيدَ مِنها مَن يَستَفيد، وليَكونَ حافزًا لأَهل هَذا الدِّين الحقِّ على تَبليغِه وتَركِ التَّواني في ذَلك، وكلٌّ بحسَبِه، وقد لاَحظَ أَعداءُ هَذا الدِّين اليومَ أنَّه يَدخلُ فيه كلُّ سنةٍ آلافٌ من غيرِه، بَينما لاَ يكادُ يُذكَر عددُ مَن يَخرجُ منه إلى الأَديانِ الأخرَى المحرَّفة، هَذا والمُسلِمون ضُعفاءُ مُستَضعَفون فكيفَ لو قَوُوا، اللَّهمَّ نَسألُك نَصرًا مُؤزَّرًا.

تأملات في الخطب النبوية

عبد الغني عوسات

الحمد لله الَّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ ليظهرَه على الدِّين كلِّه، ولو كره المشركون من الخَلْق.

والصَّلاة والسَّلام على خطيب الأنبياء وقدوة الأئمَّة والخطباء، والأمَّة جمعاء، بعثه الله رحمةً للعالمين، وجعله هدًى للنَّاس أجمعين، فجعل سيرَتَه مصدرًا لِمَن أراد حسن السِّيرة من البشر، ومرجعًا عند الاختلاف في الفِكر والنَّظر في الدَّعوة والخَطابة والذِّكر والأثر، أمَّا بعد:

فإنَّ سيرة رسول الله ﷺ عامرةٌ بالدُّروس والعبر، ووافرة بالغرر والدُّرر، وظاهرة مع تقادم الزَّمان والعصر، وفاخرة بمسيرة من جعله الله أسوة للبشر، قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب].

فلابدَّ - إذن - مِنْ حُسْنِ التَّأمُّل والتَّدبُّر في فصولها، والفهم عند استقرائها واستجلاء عِظاتها، وعدم التَّقدُّم والتَّأخُّر عن أصولها.

لقد بعث الله تعالى رسوله ﷺ على حين فترة من الرُّسل وقلَّة العلم وفشوِّ الجهل والضَّلال، وفضَّله الله بحَمْلِ رسالة الإسلام، وجعله تاليًا لخير الكلام، ومزكِّيًا للأنام، ومعلِّمًا إيَّاهم الكتاب والحكمة بإحكام، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين، كيف لا؟! وهو ﷺ الَّذي قال فيه ربُّه سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران]، فلقد أدَّاها أكمل الأداء وبلَّغها في أوضح صور البيان والإبداء، وذلك من الابتداء إلى الانتهاء، هذا ما شهد له به أصحابه الأمناء، وجاء مِصداقًا لشهادة الله في السَّماء، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الذاريات].

ولقد كانت سيرته الدَّعوية ومسيرته التَّعليميَّة حافلةً بأنفع المقالات، ووافية لأجمل المناسبات، وذلك لما بذله ﷺ في وعظ النَّاس وإرشادهم،

وتزكيتهم وإصلاحهم من جهد، من غير أن يشقَّ عليهم، بل إنَّه كان حريصًا عليهم - رحمةً ولطفًا ورأفةً ورفقًا - قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [سورة التوبة].

وتمثَّل أصحابه - الدُّعاة - من بعده هذا الخلق الكريم، والتزموه في دعوتهم، فعن أبي وائل رحمه الله قال: «كان عبد الله - ابن مسعود - رضي الله عنه يذكِّر النَّاس في كلِّ خميس، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرَّحمن! وَدِدْتُ أنَّك ذكَّرتنا كلَّ يوم، قال: أمَا إنَّه يمنعني من ذلك أنِّي أكره أن أُمِلَّكُمْ، وإنِّي أتخوَّلكم بموعظتي كما كان النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافةَ السَّآمة علينا»[1]، فكانت دعوتُه حافلةً بالوسائل والطُّرق الشَّرعيَّة الهديَّة، وحاويةً للحاجات والمقاصد السَّنيَّة، على اختلاف العوامل الزَّمانيَّة والمكانيَّة، وهذا ما يدعو إلى الوقوف على هديه ﷺ في دعوته بغيةَ التَّأمُّل في طريقته الخطابيَّة وخطبه الرِّساليَّة الَّتي التزمها في سيرته ومسيرته الدَّعوية - تعتبر الخطبة من أنفع وأنجع وسائل البيان والإعلام والاجتماع والاتِّصال بالجماهير، وهي في الإسلام لها خصائصها ومقوِّماتها وضوابطها ومقاصدها[2]، فهي ليست فقط وسيلة دعويَّة، بل هي شعيرة تعبديَّة، قد أولاها الشَّارع عناية ورعاية، كخطبة الجمعة والعيدين وغيرهما، كما دلَّت على ذلك النُّصوص روايةً ودرايةً.

وكان ﷺ يبذل في خطبته جهده ليتعلَّمَ منه كلُّ من يراه ويسمعه، إذ كان ناطقًا فيها بلسان القال والحال.

فقد كان ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوتُه، واشتدَّ غضبه، حتَّى كأنَّه مُنْذِرُ جيش، يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**».

ويقول: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**»[3].

وكان يعلِّم النَّاس فيها دينَهم، ويبيِّن لهم ما ينفعهم علمه ولا يسعهم جهله، وما لا ينبغي أن يفوتهم ذكره، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلاً يفهمه كلُّ مَنْ سمعه»[4].

وعنها رضي الله عنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يَسْرُدُ سَرْدَكم هذا، ولكنَّه كان يتكلَّم بكلام بَيْنَهُ فَصْلٌ يحفظُه مَنْ جلَس إليه»[5].

وكانت ﷺ خطبه حقًّا خطبًا جامعةً مانعةً ونافعةً ماتعةً، حيث كانت في بيانها تامَّة، وفي أثرها هامَّة، وفي مقصدها عامَّة، قال ابن القيِّم

(1) رواه البخاري (70)، ومسلم (2821).

(2) قال العزُّ بن عبد السَّلام رحمه الله: «ولا ينبغي للخطيب أن يذكر في الخطبة إلاَّ ما كان يوافق مقاصدها من الثَّناء والدُّعاء والتَّرغيب والتَّرهيب بذكر الوعد والوعيد وكلِّ ما يحثُّ على طاعةٍ أو يزجر عن معصية وكذلك تلاوة القرآن». [«فتاوى العزِّ بن عبد السَّلام» (ص77)].

(3) رواه مسلم (867)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(4) رواه أحمد (138/6)، وأبو داود (4839)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (2097).

(5) رواه البخاري (3378)، ومسلم (2493)، والترمذي (3375)، واللَّفظ له.

رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان يُعلِّمُ أصحابَه في خُطبته قواعِدَ الإسلام، وشرائعَه، ويأمرهم، وينهاهم في خطبته إذا عَرَض له أمر، أو نهي، كما أمر الدَّاخلَ وهو يخطبُ أن يُصليَ ركعتين.

ونهى المتخطِّي رِقابَ النَّاس عن ذلك، وأمره بالجلوس، وكان يقطعُ خطبته للحاجة تعْرِضُ، أو السُّؤالِ مِنْ أَحَدٍ من أصحابه، فيُجيبه، ثمَّ يعود إلى خُطبته، فيتمُّها»[6].

عن أبي رفاعة تميم بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يخْطُبُ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لا يَدْرِي مَا دِينُهُ؛ قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا»[7].

«وكان مدار خطبه على حَمْدِ اللّه، والثَّناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله، ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنَّة والنَّار والمعاد، والأمر بالتَّقوى، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه، وكان يخطب في كلِّ وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم»[8].

«وكان يقصر خطبته ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة النَّاس، وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الرَّاتبة، وكان يخطب النِّساء على حدة في الأعياد ويحرِّضهنَّ على الصَّدقة»[9].

فتلكم هي الخطبة الشَّرعيَّة الَّتي دلَّت عليها وجرت السِّيرة النَّبويَّة بصورة قوليَّة وفعليَّة ومبدئيَّة ومقصديَّة.

قال صدِّيق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ: «...ثمَّ اعلم أنَّ الخطبة المشروعة، هي ما كان يعتاده النَّبيُّ ﷺ من ترغيب النَّاس وترهيبه، فهذا في الحقيقة روح الخطبة الَّذي لأجلها شُرعت»[10].

فكانت خطبه ﷺ قائمة ولا تزال دائمة ـ على مدار الأيَّام والأعوام ـ كالجمع والأعياد والحجِّ، وكذا منها ما هو منوط بالأحوال والأهوال الَّتي تعتري الأنام؛ كالاستسقاء والكسوف.

❖ خطبة الجمعة:

فأمَّا خطبة الجمعة الَّتي يتجدَّد إلقاؤها كلَّ أسبوع، وتسعى لحضورها الجموع، ويتأكَّد لزوم الإنصات إليها وعدم الاشتغال عنها، حتَّى لا يفوت ما فيها من الخير والذِّكر المجموع، فقد كان النَّبيُّ ﷺ يأمرهم بالدُّنوِّ منه، ويأمرهم بالإنصات، ويخبرهم أنَّ الرَّجل إذا قال لصاحبه: «**أَنْصِتْ، فَقَدْ لَغَا**»[11].

وكان من هدي النَّبيِّ ﷺ في الجمعة قصر الخطبة وإطالة الصَّلاة وإكثار الذِّكر والقصد في الكلمات الجوامع، فكانت خطبه جامعة مانعة يراعي فيها أحوال النَّاس وحاجات الخلق ونحو ذلك من الحقِّ.

فقد كان يقطعها للحاجة تعرض أو السُّؤال

(6) «زاد المعاد» (1/170 ـ 171).

(7) رواه مسلم (876).

(8) «زاد المعاد» (1/179).

(9) «زاد المعاد» (1/179).

(10) «الرَّوضة النَّديَّة» (1/345).

(11) البخاري (934) ومسلم (851).

من أحدٍ من أصحابه يسْرِدُ، أو يرى منهم ذا فاقة أو حاجة فيأمرهم بالصَّدقة.

❖ **خطبة العيدين:**

وفي العيدين أمر النَّبيُّ ﷺ أن يخرج النَّاس بكثرة؛ ليشهدوا الخير ويحضروا الذِّكر، يرجون البركة والبرَّ، فعن أمِّ عطيَّة رضي الله عنها قالت: «**أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَ فِي العِيدَيْنِ العَوَاتِق وذوات الخُدُور، وأَمَرَ الحُيَّضَ أن يَعْتَزِلْنَ مُصلَّى المسلمين، فيكبِّرْنَ بتكبيرهم، ويدعون بدعائهم، يرجون بركة ذلك اليوم وطُهْرَتَه**»[12].

وكان ﷺ يخطب فيها النَّاس ويأمرهم بتقوى الله ويحثُّهم على طاعته ويَعِظُهم بما يدفعهم إلى الجنَّة ويمنعهم من النَّار.

عن جابر رضي الله عنه قال: «شهدت مع النَّبيِّ ﷺ يوم العيد، فبدأ بالصَّلاة قبل الخطبة، بلا أذان ولا إقامة، ثمَّ قام مُتَوَكِّئًا على بلال، فأمر بتقوى الله تعالى، وحثَّ على طاعته، ووعظ النَّاس، وذكَّرهم، ثمَّ مضى حتَّى أتى النِّساء فوعظهنَّ وذكَّرهنَّ، وقال: **يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**»، فقامت امرأة من سِطَة النِّساء سَفْعَاء الخَدَّيْنِ، فقالت: لِمَ يا رسول الله؟! فقال: **لأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**»، قال: فجعلن يتصدَّقن من حُلِيِّهنَّ يلقين في ثوب بلال من أقرطتهنَّ وخواتمهنَّ»[13].

❖ **خطبة عرفة:**

وفي موسم الحجِّ الَّذي يأتيه النَّاس من كلِّ حدبٍ وَصَوْبٍ يَأْتونَ مِنْ كُلِّ فجٍّ عميقٍ ليشهدوا منافع لهم، ومن منافعه ما يشهدونه يوم عرفة الَّذي يجب على كلِّ حاجٍّ وجوده فيه، أين كان للرَّسول ﷺ مناسبةٌ لإمتاع الحاضرين وإسماع الشَّاهدين، كلمات نيِّرات وتوجيهات بيِّنات لا تزال قائمةً وقائدةً، وشاهدةً وإليها الأمَّة عائدة مذاكرة ومراجعة، كما فيها من توجيهات جامعة للقلوب والأذهان ولو تباعد الزَّمان والمكان، وكان ممَّا جاء في خطبته المشهورة والمأثورة حيث خطب النَّاس فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكم حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاء الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْل، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّل رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاس ابْنِ عَبْدِالمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْر مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصبعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إلى السَّمَاءِ وَينكتها إلى النَّاس: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثلاث مرَّات**»[14].

فما أروعها من كلمات! وما أجمعها من

(12) أخرجه البخاري (937) ومسلم (2093) وغيرهما.

(13) مسلم (110).

(14) انظر حديث حجة النَّبيِّ ﷺ من رواية جابر في «صحيح مسلم» (1218).

توجيهات! وما أنفعها من إرشادات! وما أدفعها للضَّلالات!

❖ **خطبة النَّحر:**

وكذلك خطب النَّبيُّ ﷺ أصحابه يوم النَّحر، يعلِّم النَّاس فيها مناسكهم من النَّحر والإفاضة والرَّمي، فأسمعهم ما ينفعهم من الذِّكر، وممَّا جاء من قوله ووعظه، قال جابر رضي الله عنه: خطبنا ﷺ يوم النَّحر، فقال: «**أَيُّ يَوْمٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟ فقالوا: يومنا هذا، قال: فَأَيُّ شَهْرٍ أَعْظَم حُرْمَةً؟ قالوا: شهرنا هذا، قال: فأيُّ بَلَدٍ أَعْظَم حُرْمَةً؟ قالوا: بلدنا هذا؟ قال: فإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، هَلْ بَلَّغْتُ؟ قالوا: نعم، قال: اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[15].

فيا له من بيانٍ جامع بين حُرمة الزَّمان والمكان النَّافع للإنسان في العرفان الدَّافع إلى إخلاص العبادة للواحد الدَّيَّان.

❖ **خطبة الاستسقاء:**

وكذلك خطب النَّبيُّ ﷺ بعد صلاة الاستسقاء، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَوَاضِعًا، مُتَبَذِّلاً، مُتَخَشِّعًا، مُتَرَسِّلاً، مُتَضَرِّعًا، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، كَمَا يُصَلِّي فِي العِيدِ، لَمْ يَخْطُبْ خُطْبَتَكُمْ هَذِهِ**»[16]، «أَيْ بَلْ كَانَ جُلّ خُطْبَته الدُّعَاء وَالاسْتِغْفَار وَالتَّضَرُّع» كما قال السِّندي في «حاشيته على ابن ماجه».

(15) رواه أحمد (15033).

(16) رواه أبو داود (1165)، والنسائي (1521)، والترمذي (558)، وابن ماجه (1266) وأحمد (230/1)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

❖ **خطبة الكسوف:**

وكذلك خطب النَّبيُّ ﷺ بعد ما صلَّى صلاة الكسوف، وذلك لَمَّا خسفت الشَّمس في عصره فبعدما توضَّأ وأمر فنودي: إنَّ الصَّلاة جامعة وقام فأطال القيام في صلاته، وبعد انصرافه منها قام فخطب النَّاس فوعظهم ورهَّبهم من المعاصي وزجرهم عنها، وكان ممَّا جاء في خطبته بعدما حمد الله وأثنى عليه قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لاَ يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا وَادْعُوا اللهَ، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنْ مِن أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ! وَاللهِ! لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمْ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ**»[17].

كانت خطبته ﷺ دعوةً وأسوةً، وينبغي التَّمسُّك بها بصدقٍ وقوَّةٍ؛ لِمَا في ذلك من اقتداءٍ بالسُّنَّة واهتداء للأمَّة، فالخير كلُّه في اتِّباع هديه، والشَّرُّ كلُّه في ابتداعِ مَنْ بعده، قال الشافعي رحمه الله: «أخبرنا عبد المجيد عن ابن جُريج قال: قلت لعطاء: ما الَّذي أرى النَّاس يدعون به في الخطبة يومئذ؛ أَبَلَغَك عن النَّبيِّ ﷺ أو عمَّن بعد النَّبيِّ ﷺ؟

فقال: لا إنَّما أُحدِثَ، إنَّما كانت الخطبة تذكيرًا»[18].

وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

(17) أخرجه البخاري (423/2، 427، 437، 440)، ومسلم (27/3، 28) وغيرهما.

(18) «الأم» (203/1).

من أسباب العداوة والبغضاء

نجيب سلطاني
ليسانس في الشريعة الإسلامية

الحمد لله ربِّ العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، الَّذي أنعم على عباده المؤمنين بالهداية والاعتصام بحبله المتين، وجمعهم على الحقِّ، ووقاهم شرَّ التَّشاحن، وذلَّ التَّخاذل، ومنَّ عليهم بالإخاء والألفة، وجنَّبهم الاختلاف والفرقة.

وبعد؛ فإنَّه لا يستقيم للنَّاس حال في دنياهم، ومآلهم إلاَّ بالاتِّفاق والائتلاف، واجتناب التَّنابذ والاختلاف، وترك التَّشاحن والتَّباغض؛ لأنَّ عواقبهما وخيمة ونتائجهما أليمة، وهذا يمنع نزول الخير، ويرفع البركة، ويورث الضَّغينة، والقطيعة بين المسلمين، ويؤدي إلى التَّناحر والتَّقاتل.

وإنَّ للتَّشاحن والتَّباغض أسبابًا كثيرة تعكِّر صفاء القلوب وتملأها حقدًا وغلاًّ، ومن هذه الأسباب:

1 ـ إغواء الشَّيطان:

فعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: **«...أَلاَ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ[1] أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»**[2]، هذا الحديث ذكره النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في حجَّة الوداع.

وقوله «**المصلّون**» إشارة إلى أنَّ أهلَ الصلاةِ هم الذين لا تكون فيهم عبادة الشَّيطان، فإنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الذي تنهى عنه الصلاة هو: الشرك بالله ـ جل وعلا ـ فيكون الشيطان بذلك قد يئس أن يعبده من أقام الصلاة على حقيقتها.

و«**التَّحريش**»[3] قد فُسِّر بعدَّة معان متقاربة؛ فقيل: الحمل على الفتن والحروب، وقيل: الإغراء وتغيير القلوب والتَّقاطع، وقيل: الإفسادُ...

إنَّ هذا التَّحريش قد يوقعه الشَّيطان بين أهل الصَّلاة، بحزازات حزبيَّة، أو خلافات فكريَّة أو فروق طبقيَّة، أو عرقيَّة أو عنصريَّة، وقد يوقعهم في ذلك بسبب حواجز وهميَّة أو أحقاد متوارثة تاريخيَّة، أو بمجرَّد اختلافات (جغرافيَّة) ليس لأحد فيها اختيار، فيجري على ألسنة المخدوعين به عبارات الاستثقال والاحتقار لأهل

(1) قال في «القَامُوسِ»: أَيِسَ مِنْهُ كَسَمِعَ إِيَاسًا قَنِطَ، أَيْ يَئِسَ وَصَارَ مَحْرُومًا.

(2) مسلم (2812).

(3) والتَّحريش: الإغراء على الشَّيء بنوع من الخداع من حرش الضب الصيَّاد خدعه.

بلدة، أو جهة في البلد الواحد؛ كأن يسخر مثلاً من أهل (الجنوب) في بلدٍ ما، أو سكَّان (الشمَّال) في أرض ما، كما قد يغري أهل (الشَّرق) بالتَّكبُّر على أهل (الغرب) أو العكس؛ فتنطلق على ألسنة بعضهم عبارات جاهليَّة نَتِنَة، كما في قوله ﷺ لمن كادوا أن يفتنوا بالتَّحرُّشات الجاهليَّة: «**مَابَالُ دَعْوى الجَاهِلِيَّة؟! دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[4]، يقصد بذلك ﷺ التَّعالي بالأحساب والأنساب، والتَّميُّز بالأسماء والألقاب.

2 ـ البدعة:

إنَّ صاحب البدعة ينتصر لبدعته، وهي سبب تفرُّق الأمَّة أحزابًا وشِيَعًا، قال أبو العالية رحمه الله: «عليكم بسنَّة نبيِّكم ﷺ، وما كان عليه أصحابه رضي الله عنهم، وإيَّاكم وهذه الأهواء الَّتي تلقي بين النَّاس العداوة والبغضاء» اهـ[5].

قال صاحب «الإبانة»: «أعاذنا الله وإيَّاكم من الآراء المخترعة، والأهواء المتَّبعة، والمذاهب المبتدعة، فإنَّ أهلها خرجوا عن اجتماع إلى شتات، وعن نظام إلى تفرُّق، وعن أنس إلى وحشة، وعن ائتلاف إلى اختلاف، وعن محبَّة إلى بغضة، وعن نصيحة وموالاة إلى غشٍّ ومعاداة، وعصمنا وإيَّاكم من الانتماء إلى كلِّ اسم خالف الإسلام والسُّنَّة»[6].

3 ـ الغضب:

وهو مدخلٌ عظيمٌ من مداخل الشَّيطان، وبابٌ واسعٌ يصطاد الشَّيطانُ فرائسَه من خلاله؛ لأنَّ الغضب يخرج الإنسان عن وعيه، فيفعل ما لا تُحمد عقباه، ثم يندم على ذلك، قال النَّبيُّ ﷺ للَّذي رآه في حالة غضب، وقد انتفخت أوداجه واحمرَّ وجهه: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِد لو قال: (أَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم)**»[7].

وقال ابن رجب رحمه الله: «مدح الله من يغفر عند غضبه، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧**﴾ [الشورى]؛ لأنَّ الغضب يحمل صاحبه أن يقول غير الحقِّ ويفعل غير العدل، وعند ذلك تتنافر القلوب وتقع الشَّحناء عند أهل الإسلام، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤**﴾ [فصلت]، أمر الله المؤمنين بالصَّبر عند الغضب، والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشَّيطان، وخضع لهم عدوُّهم كأنَّه وليٌّ حميم» اهـ.

4 ـ الحسد:

الحسد ـ أبقاك الله ـ داءٌ عظيمٌ من أدواء النَّفس، لا يشفى سقيمه ولا يرقى سليمه مع ما فيه من إفساد الدِّين وإضرار البدن؛ لأن الحاسد يدوم همُّه ويكثر غمُّه ويذوب جسمه ويذهل عقله عن صواب الرَّأي، ويشتغل قلبه عن صحيح الفكر، وهو أقبح من البخل؛ لأنَّ الحاسد يحبُّ أن لا ينال أحدٌ شيئًا ممَّا لا يملكه؛ فكان أعظم

(4) البخاري (4622)، مسلم (2584).
(5) الإبانة الكبرى (338/1).
(6) «الإبانة الكبرى» (388/1).
(7) رواه البخاري (3108)، ومسلم (2610).

قبحًا وأشدَّ ذمًّا، وليس شيء أعظم ضررًا من الحسد، قال رسول الله ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ**»[8].

والحسد عقيدُ الكفر، وحليفُ الباطل، وضدُّ الحقِّ، منه تتولَّد العداوة، وهو سببُ كلِّ قطيعة، ومفرِّق كلِّ جماعة، وقاطع كلِّ رَحِمٍ مِنَ الأقرباء، ومحدث التَّفرُّق بين القرناء، وملقح الشَّرِّ بين الحلفاء.

فالحاسد يكره أوَّلاً فضلَ الله على غيره، ثمَّ ينتقل إلى ذلك المنعم عليه، وشرّ ما أشعر قلب المرء الحسد، وفي القنوط التَّفريط، وفي الخوف من العواقب البغي.

وأقبح أنواع الحسد الَّذي يكون بين المنتسبين إلى العلم والدَّعوة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قد يُبتلى بعض المنتسبين إلى العلم بنوع من الحسد لمن هداهم الله إلى علم نافعٍ وعمل صالح، وهو خلقٌ ذميم مطلقًا، وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب عليهم» اهـ[9].

وليس من الحسد؛ الرَّدُّ على المخالف لمنهج السَّلف، بَل هو مِنَ النَّصيحة وحبِّ الخير للمنصوح.

5 ـ اتِّباع الهوى:

إنَّ أصل العداوة والشَّرِّ والحسد الواقع بين النَّاس؛ مِنِ اتِّباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه؛ فاستراح وأراح، قال أبو بكر الورَّاق: «إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصَّدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم»، فانظر ماذا يتولَّد عن التَّباغض من الشَّرِّ والعداوة وترك الحقوق وغيرها، وإنَّ اتِّباع الهوى مظنَّة الظُّلم والبغي، قال تعالى: ﴿**فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا**﴾ [النساء: 135].

قال ابن رجب رحمه الله: «لَمَّا كثر اختلاف النَّاس في مسائل الدِّين وكثر تفرُّقهم؛ كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكلٌّ منهم يظهر أنَّه يبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورًا، وقد لا يكون معذورًا، بل يكون متَّبعًا لهواه، مقصِّرًا في البحث عمَّا يبغض عليه»[10].

6 ـ النَّميمة:

إنَّ النَّميمةَ مرضٌ فتَّاك، يفتك تآلف المسلمين فيما بينهم، فكم مزّقت من محبَّة، وكم فرّقت من قرابة، وكم أوقدت من فتنة؛ فأوغرت القلوب وغيَّرت الصُّدور، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»[11] الحديث[12].

فاحذر ـ أخي المسلم ـ من النَّميمة فإنَّها من أمراض النُّفوس، وهي داءٌ خبيثٌ يَجري على الألسن؛ فيهدم الأسر، ويفرِّق الأحبَّة ويقطع الأرحام.

7 ـ المراء والجدال والخصام:

إنَّ كثرة المراء والجدال مدعاةٌ للخصومة،

(8) **حسن لغيره**: رواه التِّرمذي (2510) وغيره، انظر: «صحيح التَّرغيب» (2695).

(9) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص6).

(10) «جامع العلوم والحكم» (ص330).

(11) «قَتَّات» هُوَ النَّمَّام، وَوَقَعَ بلَفْظِ «نمَّام» في رِوَايَة أَبي وَائِل عَنْ حُذَيْفَة رضي الله عنه عِنْدَ مُسْلِم. [«الفتح» (17/216)].

(12) رواه البخاري (5709)، ومسلم (105).

ومجلبة للبغضاء والضَّغينة، والجدال يقسِّي القلب، وهو سببٌ للقطيعة، والمسلم إذا كان كثير المجادلة كان مذمومًا عند النَّاس؛ لذا قال بعض السَّلف: «إذا رأيت الرَّجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه فقد تمَّت خسارته».

وقال الإمام الآجرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعند الحكماء أنَّ المراء يغيِّر قلوب الإخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس»[13] اهـ.

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراء يقسِّي القلوب ويورث الضَّغائن»، وقال بعض السَّلف: «إذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبده شرًّا أغلقَ عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل».

وقال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ الجدال قد يكون بحقٍّ، وقد يكون بباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، قال: فإن كان الجدال للوقوف على الحقِّ وتقريره؛ كان محمودًا، وإن كان في مدافعة الحقِّ أو كان جدالاً بغير علمٍ كان مذمومًا، وعلى هذا التَّفصيل تنزل النُّصوص الواردة في إباحته وذمِّه، والمجادلة والجدال بمعنى واحد...، قال بعضهم: «ما رأيت شيئًا أذهب للدِّين ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة»[14].

(13) «أخلاق العلماء» للآجري (59).

8 ـ البغي في المسائل الَّتي يسوغ الخلاف فيها:

إنَّ السَّلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يدخل قلوبهم شيءٌ من الغلِّ والبغض لأحد من إخوانهم بمجرَّد مخالفته لهم، فهذا الإمام أحمد كان يذكر إسحاق ابن راهويه فيمدحه ويثني عليه، ويقول: «لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإنَّ النَّاس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا»[15].

9 ـ التَّعصُّب لغير الحقِّ:

سواء كان هذا التَّعصُّب لمذهب أو قبيلة أو حزب أو جماعة أو شخص أو غير ذلك، يقول شيخ الإسلام: «ومن نصب شخصًا كائنًا من كان؛ فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ ...» الآية [الروم: 32]، وليس لأحد أن يدعوَ إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها، بل لأجل أنَّها ممَّا أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله؛ لكون ذلك طاعة لله ورسوله» اهـ[16].

10 ـ ظنُّ السُّوء بالمسلم:

يقول النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**»[17].

(14) «الأذكار» للنَّووي (ص296).

(15) «سير أعلام النُّبلاء» (371/11).

(16) «مجموع الفتاوى» (8/20- 9).

(17) متَّفق عليه: البخاري (6064)، ومسلم (2563).

ولذا فعلى المسلم أن يحسن الظَّنَّ بإخوانه كما يحبُّ هو أن يكون ظنُّهم به حَسَنًا.

والظُّنون السَّيِّئة لا تصدر إلاَّ من قلوب لا تخلو من السَّيِّئات؛ فتطلب لغيرها العثرات، كما قال المتنبِّي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدَّق ما يعتاده من توهُّم
وعادى محبيه بقول عداته
فأصبح في ليل من الشكِّ مظلم

11 ـ التَّنافس على الدُّنيا والرِّياسة والجاه:

حبُّ الرِّياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصُّل إلى مقصود، ومن علامة ذلك كراهة الرَّجل لغيره أن يتصدَّر في العلم والخير والسُّنَّة، وانطلاق الألسنة في الثَّناء عليه، وفي هذا مشابهة لليهود الَّذين ذمَّهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾ [النساء: 54].

12 ـ اختلاف الصُّفوف في الصَّلاة: عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُم**»[18]. وفي رواية: «**بَيْنَ قُلُوبِكُم**»[19].

قَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله: «مَعْنَاهُ يُوقِعُ بَيْنَكُمْ العَدَاوَة وَالبَغْضَاء وَاخْتِلاف القُلُوبِ، كَمَا يُقَال: تَغَيَّرَ وَجْه فُلانٍ عَلَيَّ، أَيْ: ظَهَرَ لِي مِنْ وَجْهِهِ كَرَاهة لي، وتغيّر قلبه عليّ؛ لأَنَّ مُخَالَفَتَهُمْ في الصُّفُوفِ مُخَالَفَة في ظَوَاهِرِهِمْ، وَاخْتِلاف الظَّوَاهِرِ سَبَب لاخْتِلاف البَوَاطِن»[20].

واختلاف القلوب يفضي إلى اختلاف الوجوه المعبّر به في خبر: «**أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**» بإعراض بعضهم عن بعض، وهذا جزاءٌ من جنس العمل؛ كخبر مَنْ قتلَ نفسَه بحديدةٍ عُذِّب بها[21].

وَقَالَ القُرْطُبِيُّ: «مَعْنَاهُ: تَفْتَرِقُونَ؛ فَيَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ وَجْهًا غَيْرَ الَّذِي أَخَذَ صَاحِبُهُ؛ لأَنَّ تَقَدُّمَ الشَّخْصِ عَلَى غَيْرِهِ مَظِنَّةُ الكِبْر المُفْسِد لِلْقَلْبِ، الدَّاعِي إِلَى القَطِيعَةِ»[22].

13 ـ النَّجوى بين المؤمنين:

جاء في الحديث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِث**»[23] ـ أي: إذا كانوا ثلاثة لا يتسامع اثنان من دون الثَّالث ـ من أجل أنَّ ذلك يحزنه، ومثله إذا كانوا ثلاثة؛ فتحدّث اثنان بلغة لا يعرفها الثالث، لأنَّ ذلك يحزنه، وهذا من عمل الشَّيطان، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ [المجادلة: 10].

14 ـ كثرة المزاح:

إنَّ الإفراط في المزاح، والمداومة عليه، منهيٌّ عنه؛ لأنَّه يسقط الوقار، ويوجب الضَّغائن

(18) البخاري (717) ومسلم (436).

(19) أبو داود (662).

(20) «شرح النَّووي على مسلم» (178/2).

(21) «فيض القدير» للمناوي (97/2).

(22) انظر: «الفتح» (207/2) بتصرُّف.

(23) رواه البخاري (5929).

والأحقاد، أمَّا المزاح اليسير النَّزيه؛ فإنَّه لا بأس به، لأنَّ فيه انبساطًا وطيب نَفْسٍ، وكان النَّبيُّ ﷺ يمزح ولا يقول إلاَّ حقًّا.

إنَّ لكثرة المزاح آثارًا سيِّئة؛ قال ابن عبد البرِّ رحمه الله: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التَّوصُّل إلى الأعراض، واستجلاب الضَّغائن، وإفساد الإخاء»[24].

وإنَّ الأمر إذا تجاوز حدَّه انقلب إلى ضدِّه، قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إيَّاكم والمزاح! فإنَّه يورث الضَّغينة ويجرُّ إلى القبيح»، وقيل: «لكلِّ شيء بذوره وبذور العداوة المزاح»، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء]، وقال بعض الشُّعراء:

مازح أخاك إذا أردت مزاحًا
وتوق منه المزاح جماحًا

فلربَّما مزح الصَّديق بمزحة
كانت لباب عداوة مفتاحًا

15 ـ دسائس أهل النِّفاق:

أهل النِّفاق الَّذين يندسُّون في صفوف المؤمنين لإيقاع العداوة والبغضاء؛ لأنَّهم يحزنهم أن ترجع هذه الأمَّة إلى دينها وتجتمع على مذهب سلفها الصَّالح، «فالأمَّةُ الإسلاميَّةُ أمَّةٌ واحدةٌ، ... فيجبُ أن يكون مظهرُها واحدًا لا يختلفُ؛ لأنَّ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ لها أعداء يعلنون العداوةَ صَراحةً، وهم الكفَّارُ الصُّرحاءُ مثل اليهود والنَّصارى والمجوس والوثنيِّين والشُّيوعيِّين وغيرهم، ولها أعداءٌ يُخفُونَ عداوتَهم مثل المنافقين، وما أكثرَ المنافقين في زماننا... قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة]»[25].

اللَّهمَّ سلِّم صدورنا وقلوبنا من الغلِّ والحسد، واجعلنا من الَّذين قلت فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

والله تعالى أعلم، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



(24) «بهجة المجالس» لابن عبد البرِّ (3/569).

(25) «الشَّرح الممتع» لابن عثيمين (4/158 ـ 159).



فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم صرف الزكاة إلى ابنته المتزوجة

السُّؤال:

أنا امرأة متزوِّجة ولِي أولاد، ووالدهم محدود الدَّخل لا يقدر على الإنفاق عليهم وتوفير ما يحتاجونه من المطعم والملبس ونحو ذلك، فهل يجوز لي أن أقبل الزَّكاة من والدي الغنيِّ؟ لأنَّه قيل لي: إنَّ والدك يجب عليه أن ينفق عليك لا أن يعطيك الزَّكاة؟

فأرشدني ـ حفظكم الله ـ إلى الجواب الَّذي أهتدي به في هذه المسألة، وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالأصل المتقرِّر ـ فقهًا ـ أنَّ كلَّ قريبٍ سواء من جهة الأصول كالآباءِ أو الأمَّهاتِ وإن عَلَوْا، أو من جهة الفروع كالأولاد وإن نَزَلُوا؛ ممَّن يكون المزكِّي هو المسؤول عنهم في الإنفاق، لا يجوز له أن يدفع إليهم زكاته من أجل النَّفقة، وإن كانوا فقراء؛ لأنَّهم أغنياء بغناه، ودفع الزَّكاة إليهم مجلبة للمزكِّي وتحصيل النَّفع بتوفير ماله، لذلك لا تجتمع زكاة ونفقة.

ومعيارُ النَّفقة الواجبة تتلخَّص في: أنَّ كلَّ من يَرِثُه المزكِّي لو افترض موته، فإنَّه تلزمه نفقته إذا تولَّى أمره، أمَّا إذا استقلَّ بنفقته على نفسه، أو تولَّى مسؤوليَّة الإنفاق عليه إلاَّ أنَّه عاجز عن النَّفقة عليه، أو صرف الزَّكاة إليه من غير باب النَّفقة، كَسَهْمِ «الغارمين» أو «في سبيل الله» أو «ابن السَّبيل»؛ فإنَّ هذه الأحوال تخوِّل له ـ شرعًا ـ صرفَها إليهم، ودفعَها إلى أقربائه أَوْلَى ولو كان هو المسؤول عنهم في الإنفاق؛ لقوله ﷺ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ وهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وصِلَةٌ**»[1].

(1) أخرجه التِّرمذي (658)، والنَّسائي (2582)، وأحمد (15794)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث حسَّنه الألباني في «الإرواء» (3/387).

ولا يخفى أنَّ المسؤول على المرأة المتزوِّجة في الإنفاق - كما في السُّؤال - إنَّما هو زوجها لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233]، وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7]، ولقوله ﷺ: «وَلَهنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمعْرُوفِ»[2].

فإن كان الزَّوجُ صاحبُ الدَّخلِ المحدود لا يسعُه المالُ للإنفاق، ولا يكفيه راتبُه للقيام بمصارفه ومصارف عياله، فإنّ أبَا الزَّوجة الغنيَّ إنْ أعطى زكاته للزَّوج تمكينًا له للقيام بما يلزمه من النَّفقة على عياله كان حسنًا.

أمَّا إن صرفَها الأبُ إلى ابنته فإنَّها تصحُّ بالأحروية: صدقةً وصلةً - كما تقدَّم في الحديث - لعدم وجوب النَّفقة عليه، وقد روى ابن خزيمة في «صحيحه» بإسناده حديثَ عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جدِّه: أنَّ رجلاً تصدَّق على ولده بأرضٍ فردَّها إليه الميراث، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له: «وَجَبَ أَجْرُكَ وَرَجَعَ إِلَيْكَ مُلْكُكَ»[3].

هذا، ولوالدِ الزَّوجةِ إنْ رأى عدمَ كفايةِ الزَّكاةِ المصروفة إليها، وأراد أن يكرمها بعطيَّةٍ زائدةٍ عن الزَّكاة لسدِّ مزيد حاجتها، فيجوز له ذلك، ويدخل فعله في باب الهبة والعطيَّة، ولا يُشترط عليه فيها العدلُ بين أولاده لقيام سلطان الحاجة فيها دونهم، وهم أغنياء بغناه إن كانوا تحت مسؤوليَّته في الإنفاق، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

(2) جزء من حديث جابر رضي الله عنه في صفة حجَّة النَّبيِّ ﷺ، أخرجه مسلم (2950).

(3) أخرجه ابن خزيمة (2465)، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه، والحديث حسَّنه الألباني في «صحيح ابن خزيمة» (2465).

في حكم لبس المرأة للبنطلون

السُّؤال:

كثيراتٌ من النِّسوة المسلمات يسألن عن حكم لباس السِّروال أو البنْطلُون الخاصِّ بالمرأة المجسِّم للعورة، والظُّهورِ به أمام الزَّوج بغية التَّزيُّن له، أو تحقيقِ رغبته في ذلك، فإن كان هذا جائزًا؛ فهل يُعمِّم الحكمُ في ذلك على الظُّهور به أمام النِّساء، وأمام الأولاد في البيت؟

نرجو من فضيلتكم تفصيلاً في المسألة، ووفَّقكم الله إلى قول الصَّواب.

الجواب:

الأصل في النِّساء أنَّهنّ مأموراتٌ بالاستتارِ والاحتجابِ دون التَّبرُّجِ والظُّهورِ، لذلك فالمرأة ترتدي من الثِّيابِ ما يُصلح حالها ويُناسب مقصودَ الشَّارع المحقِّق لمعنى السَّتر، ولا يشرع لها ضدّ ذلك، ولا يبعد عن أهل النَّظر أنَّ مقصودَ الثِّياب في معناه وعلَّته يشبهُ مقصود المساكن، وقد جاء في شأن المساكن والبيوت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33]، وقوله ﷺ: «**لاَ تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ المسَاجِدَ، وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**»(4) إذ المساكنُ من جنس الملابس والعلَّة فيهما الوقايةُ ودفع الضَّرر، فالوقايةُ من الحرِّ والبرد وسلاحِ العدوِّ، ونحو ذلك، يوجد في المساكن والملابس، لذلك قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ**﴾ [النحل: 81] وقال تعالى: ﴿**وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ**﴾ [النحل: 5]، أي: من البرد.

وإذا تقرَّر أنَّ الشَّريعة تأمر النِّساء بالاستتار والاحتجاب، فإنَّ هذا المقصود الشَّرعي يُظهر الفرق في اللِّباس بين المرأة والرَّجل، فاللِّباس إن كان عائدًا إلى ذات السّتر فهذا يُؤمر به النِّساء بما كان أستر لهنَّ، إذ أنَّ كلَّ لباس قريب من مقصود الشَّارع بالاستتار؛ فالنِّساء أولى به، وكان ضدُّه للرِّجالِ إلاَّ ما استثناه الدَّليلُ.

أمَّا إن كان اللِّباسُ عائدًا إلى العادة، وتضمَّن في ذاته السّتر المطلوب؛ فإنْ جرت عادة أهل البلاد أن يلبس الرِّجال مثل هذه الثِّياب دون النِّساء؛ فإنَّ النَّهي عن مثلِ هذا يتغيَّر بتغيُّر عاداتِ النَّاس في أحوالهم وبلادهم.

ومن منطلقِ هذا التَّقعيدِ؛ فإنَّ السِّروال أو البنطَلُون معدودٌ من أخصِّ ثياب الرِّجال، فإن كان محجِّمًا للعورة، ومحدِّدًا لأجزاء البدن، ومظهرًا لتقاطيع الجسم؛ فهو بهذه الصِّفة لا يجوز للرَّجل، بله المرأة، سواء مع المحارم أو الأجانب، ويتعيَّن المنع عليها من جهتين:

الجهة الأولى: أنَّ في لُبسه فتحًا لباب لباس أهل النَّار وتشبُّهًا بهم في قوله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الجنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا...**»(5)، والمراد به النِّساء اللَّواتي يلبسن الخفيفَ من الثِّياب الَّذي يصف ولا يستر، فهنَّ كاسياتٌ بالاسم عارياتٌ في الحقيقة(6)، والتَّشبُّه بأهل النَّار أو بالعاهرات لا يجوز شرعًا؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»(7)، وحتَّى يغيب معنى التَّحجيم والعري أمرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجلَ الَّذي كسَى امرأته قُبْطِيَّة: «**مُرْهَا فلتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلاَلَةً، فإنِّي أخافُ أنْ تَصِفَ حَجْمَ**

(4) أخرجه أبو داود (567)، وأحمد (5460)، والحديث صحَّحه النَّووي في «الخلاصة» (678/2)، وأحمد شاكر في «تحقيقه لمسند أحمد» (232/7)، والألباني في «الإرواء» (294/2)، وأخرجه البخاري (858) ومسلم (442) دون زيادة «**وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**».

(5) أخرجه مسلم (5582)، وأحمد (8451)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(6) انظر: «شرح مسلم» للنَّووي (110/14)، «فيض القدير» للمناوي (209/4)، «تنوير الحوالك» للسُّيوطي (103/3).

(7) أخرجه أبو داود (4033)، وأحمد (5232)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، والحديث صحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (359/1)، وحسَّنه ابن حجر في «فتح الباري» (288/10)، والألباني في «الإرواء» (1269).

عِظَامِهَا»[8].

والجهة الثانية: أنَّ في لبس البنطلون تشبُّهًا بالرِّجال في أخصِّ ثيابهم، وقد جاءت صيغة النَّهي بلفظ التَّشبُّه بقول ابن عباس رضي الله عنه: «**لَعَنَ رسولُ اللهِ المُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ**»[9]، وقال: «**لَعَنَ النَّبيُّ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ**»[10]، وفي حديث آخر: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ، وَالمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ**»[11]، وقد علَّق الحكم باسم التَّشبُّه سواء في اللِّباس أو في غيره، ولا يخفى أنَّ المشابهة في الأمور الظَّاهرة تورث المشابهة في الأخلاق والتَّناسب في الأعمال، فالمرأةُ المتشبِّهةُ بالرِّجال تنطبعُ بأخلاقهم، الأمر الَّذي ينافي الحياء والخَفَرَ[12] المشروع للنِّساء، ويتجسَّد فيها معنى التَّبرُّج والبروز ومشاركة الرِّجال؛ فيؤدِّي ذلك إلى إظهار بدنها كما يُظهره الرَّجل، وتطلب العلوَّ على الرَّجل، كما تعلو الرِّجال على النِّساء، وهذا القدر قد يحصل بمجرَّد المشابهة، وقد نبَّه على هذه القاعدة شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في كتابه «اقتضاءُ الصِّراطِ المستقيم مخالفةَ أصحابِ الجحيم».

هذا؛ وتزول الآفتان السَّابقتان فيما إذا لبست المرأة سروالاً أو بنطلونًا وفوقه ملابسُ سابغةٌ، حيث ينتفي فيه التَّشبُّه بالرِّجال، لتحوِّل المظهر الخارجي الظَّاهر إلى لباسٍ داخليٍّ مستورٍ تختفي فيه المعاني السَّابقة ويتحقَّق السّتر والاحتجاب المطلوب ـ شرعًا ـ من النِّساء تحصيله، وضمن هذا المنظور قال ابن تيميَّة رحمه الله: «فلو لبست المرأةُ سراويلَ أو خفًّا واسعًا صلبًا كالموقِ[13]، وتدلَّى فوقه الجلبابُ بحيث لا يظهرُ حجمُ القدمِ لكان محصِّلا للمقصودِ»[14]، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

في قنوت النّازلة وأحكامه

السُّؤال:

ظَهَرَ في الآونة الأخيرة ـ تزامُنًا مع العدوان الصُّهيوني على غزَّةَ ـ خلافٌ بين النَّاس فيما يتعلَّق بقنوت النَّوازل، من حيث تفاصيلُ مشروعيَّته، وهل يُشترط فيه إذن الحاكم أم لا؟

---

(8) أخرجه أحمد (21279)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (3346)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (5/139): «فيه عبد الله بن محمَّد ابن عقيل، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقيَّة رجاله ثقات»، وحسَّنه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (131).

(9) أخرجه البخاري (5885)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(10) أخرجه البخاري (5547)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(11) أخرجه أبو داود (4098)، وأحمد (8110)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (5095).

(12) الخَفَر: شدَّة الحياء [«النِّهاية» لابن الأثير (2/35)، «مختار الصِّحاح» للرَّازي (182)].

(13) الموق: خف غليظ يلبس فوق الخف [«مختار الصِّحاح» للرَّازي (639)، «المعجم الوسيط» (2/892)].

(14) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (22/148).



وإذا منعه الإمام الحاكم؛ لأسباب ظهرت له، فهل على مَن خالفه إثمٌ في ذلك؟

وهل يُشرع في هذا القنوت تسمية المعتدين بأعيانهم كـ «أولمرت، باراك، وليفني... وغيرهم»، كما هو هديُ النَّبي ﷺ؟

دُلُّونا ـ حفظكم الله ـ على الصِّيغة المشروعة الموافقة لسُنَّة النَّبيِّ ﷺ مشكورين ومأجورين.

الجواب:

لا نِزاعَ بين الأئمَّة في مشروعيَّة القنوت ولا في مشروعيَّته للنَّازلة، وإنَّما النِّزاع في بقاء مشروعيَّته لغير النَّازلة، فمالك رحمه الله يرى دوام قنوت النَّوازل في الفجر بالدُّعاء على الكفَّار والاستعانة بالله عليهم[15] لدوام أسبابها، قال ابن العربي المالكي: «ورأى مالكٌ والشَّافعيُّ أنَّ ذلك من كَلَب العدوِّ ومقارعته معنًى دائم فدام القنوت بدوامه»[16]، والصَّحيح أنَّ القنوت في مشروعيَّته متوقِّف على وجود سببه ويزول بزواله، وما ذكره ابن العربي مِن عِلَّة في استدامة القنوت عند مالكٍ فهي واردة في زمانه ﷺ وفي زمن الصَّحابة رضي الله عنهم، فلم يُجْمِعُوا على الاستمرار عليه ولا حدَّدوه بشهر؛ لأنَّ التَّحديد فيه ناسب زمن النَّازلة، فكان غير مقصود، فقد ترك النَّبيُّ ﷺ القنوت لما زال سببه، بقدوم من قَنَتَ لهم، قال ابن القيِّم: «فإنَّه إنَّما قنت عند النَّوازل للدُّعاء لقومٍ، وللدُّعاء على آخرين، ثمَّ تركه لَمَّا قدم من دعا لهم وتخلَّصوا من الأسر، وأسلم من دعا عليهم، وجاؤوا تائبين، فكان قنوته لعارضٍ، فلمَّا زال ترك القنوت»[17].

هذا، ومن تفاصيل مشروعيَّته أنَّ قنوت النَّازلة يُشرع في الرَّكعة الأخيرة بعد الرَّفع من الرُّكوع في الصَّلوات المكتوبات كلِّها، ولم يكن من هديه تخصيصه بالفجر، بل كان أكثر قنوته فيها[18]، وهو قول عامَّة فقهاء أهلِ الحديث، وهو المأثور عن الخلفاء الرَّاشدين، ويدلُّ على هذا المضمون من التَّفاصيل نصوصٌ حديثيةٌ كثيرةٌ منها:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**كَانَ القُنُوتُ فِي المَغْرِبِ وَالفَجْرِ**»[19]، وعنه رضي الله عنه: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا يَلْعَنُ رِعْلاً وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[20]، وعنه رضي الله عنه ـ أيضًا ـ: «**أَنَّ رِعْلاً وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لِحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى عَدُوٍّ فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ، كُنَّا نُسَمِّيهِمُ القُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ، كَانُوا يَحْتَطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ حَتَّى كَانُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قَتَلُوهُمْ وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لِحْيَانَ، قَالَ أَنَسٌ: فَقَرَأْنَا فِيهِمْ قُرْآنًا، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ رُفِعَ، (بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا**

(15) «المدوَّنة الكبرى» لابن القاسم (1/103).

(16) «القبس» لابن العربي (1/348).

(17) «زاد المعاد» لابن القيِّم (1/272).

(18) المصدر السَّابق الجزء والصَّفحة نفسها.

(19) أخرجه البخاري (765، 959)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(20) أخرجه مسلم (1552)، من حديث أنس رضي الله عنه.

لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا)»[21].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: «**لأُقَرِّبَنَّ صَلاَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقْنُتُ فِي الرَّكْعَةِ الآخرة مِنْ صَلاَةِ الظُّهْرِ وَصَلاَةِ العِشَاءِ وَصَلاَةِ الصُّبْحِ بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْعَنُ الكُفَّارَ**»[22]، وعنه رضي الله عنه قال: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فِي الرَّكْعَةِ الآخرة مِنْ صَلاَةِ العِشَاءِ قَنَتَ: اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بنَ أَبي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بنَ الوَلِيدَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»[23].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**قَنَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ وَالعَصْرِ وَالمَغْرِبِ وَالعِشَاءِ وَصَلاَةِ الصُّبْحِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخرة يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءِ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ**»[24].

فمجموع هذه الأحاديث تفيد أنَّ قنوت النَّبيِّ ﷺ كان جُمَلاً قليلة، وقد سُئِلَ أنس ابن مالك: هل كان النَّبيُّ ﷺ يقنت في صلاة الصُّبح؟ قال: «**نَعَمْ، بَعْدَ الرُّكُوعِ يَسِيرًا**»[25]، ويقتصر في الدُّعاء على النَّازلة، وقد يُكرِّر الدُّعاء نفسه في الأيَّام الَّتي يقنت فيها، ويجهر في قنوته، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ويدعو في كلِّ نازلةٍ بما يناسب المقصود منها، ويتابع المأمومُ إمامَه في قنوته ويُؤَمِّنُ على دعائه، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وليس للقنوت صيغة مُعَيَّنَة، وله أن يدعوَ في كلِّ نازلة بما يتوافق مع المقصود منها، وله أن يُسَمِّيَ من يدعو لهم من أهل الإيمان ومن يدعو عليهم من أهل الكفر؛ لثبوت ذلك عنه ﷺ، قال ابن تيمية: «وينبغي للقانت أن يدعوَ عند كلِّ نازلة بالدُّعاء المناسب لتلك النَّازلة، وإذا سمَّى من يدعو لهم من المؤمنين، ومن يدعو عليهم من الكافرين المحاربين كان ذلك حسنًا»[26]، وقال: رحمه الله في موضعٍ آخر: «بل عُمَر قنت لما نزل بالمسلمين من النَّازلة، ودعا في قنوته دعاءً يناسب تلك النَّازلة، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قنت أوَّلاً على قبائل بني سليم الَّذين قتلوا القُرَّاء دعا عليهم بالَّذي يناسب مقصوده، ثمَّ لما قنت يدعو للمستضعفين من أصحابه دعا بدعاء يناسب مقصوده، فسُنَّة رسول اللَّه ﷺ وخلفائه الرَّاشدين تدلُّ على شيئين:

(21) أخرجه البخاري (3862)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(22) أخرجه البخاري (764)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(23) أخرجه البخاري (961)، ومسلم (1540)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(24) أخرجه أبو داود (1434)، وأحمد (2741)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. والحديث صحَّحه النَّووي في «الخلاصة» (461/1)، وأحمد شاكر في «تحقيقه لمسند أحمد» (263/4)، والألباني في «الإرواء»: (163/2).

(25) أخرجه البخاري (956)، ومسلم (1545)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(26) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (271/22).



أحدهما: أنَّ دعاء القنوت مشروع عند السَّبب الَّذي يقتضيه ليس بسُنَّة دائمة في الصَّلاة.

الثَّاني: أنَّ الدُّعاء فيه ليس دعاءً راتبًا، بل يدعو في كلِّ قنوتٍ بالَّذي يناسبه، كما دعا النَّبيُّ ﷺ أوَّلاً وثانيًا، وكما دعا عمر وعلي رضي الله عنهما لَمَّا حارب من حاربه في الفتنة فقنت، ودعا بدعاء يناسب مقصوده»[27].

هذا؛ ويسنُّ للإمام والمأموم رفع اليدين في قنوت النَّازلة لثبوته عن النَّبيِّ ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم لحديث أنسٍ رضي الله عنه قال: «..**فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ وَجْدَهُ عَلَيْهِم، ـ يَعْنِي القُرَّاءَ ـ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي صَلاَةِ الغَدَاةِ رَفَعَ يَدَيْهِ فَدَعَا عَلَيْهِمْ**»[28]، وقد ثبت ذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع يديه في القنوت وكذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيرهما، قال النَّووي: «هذه الأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ وأصحابه»[29].

أمَّا القنوت في صلاة الجمعة والنَّوافل وللمنفرد؛ فلا أعلم له حديثًا أو أثرًا صحيحًا يدلُّ على مشروعيَّته فيها، والمعلوم أنَّ «**الأَصْلَ فِي العِبَادَاتِ التَّوْقِيفُ وَالحَظْرُ**».

(27) المصدر السَّابق (109/23).

(28) أخرجه أحمد (11994)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (3229)، من حديث أنس رضي الله عنه، والحديث جوَّد إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» (130/1)، وانظر «الإرواء»: (163/2).

(29) «المجموع» للنَّووي (511/3).

وكذلك مسح الوجه بعد دعاء القنوت، فليس فيه إلاَّ حديث أو حديثان ضعيفان لا تقوم بهما الحجَّة، كما نصَّ على ذلك البيهقي[30] وابن تيمية[31] والنَّووي[32].

فالحاصل: ينبغي على الإمام مراعاةُ التَّيسير، وتحاشي التَّطويل، وترك التَّصنُّع، والابتعاد عن المبالغة بإقحام أدعية إضافيَّة لا علاقةَ لها بالنَّازلة، وأن يجعل توسُّلَه بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى مناسبًا لمقام دعاء النَّازلة، فلا يتوسَّل بصفة الرَّحمة والمغفرة في مقام لعن الكفَّار وذمِّهم، والدُّعاء عليهم بالشِّدَّة والسِّنين، كما لا يجوز أن يتعدَّى بالدُّعاء فيصيب أعراض المسلمين، ولا ينتهز الفرصة ليؤلِّب النَّاس بدعائه على الحكَّام والمسؤولين المسلمين، والتَّهوين بهم، ونحو ذلك ممَّا ليس من المشروع في الأدعية ولا هو من مقاصد الشَّريعة.

هذا، وقنوت النَّازلة سُنَّة ثابتةٌ تُشرع لعارِض ـ كما تقدَّم ـ وتقامُ في المساجد ولا تحتاج إلى إذن الإمام الحاكم أو نائبه، وهي شعيرة ظاهرةٌ تحقِّقُ مَقصدًا شرعيًّا عامًّا يتجلَّى أداؤها في المشاركة المعنويَّة الأَخَويَّة، والاهتمام بالمسلمين، وحفز الهمم، وإبداء التَّعاطف والتَّعاون، وإظهار التَّناصر والتَّآزر الأخوي، المشعر بأنَّهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ

(30) «سنن البيهقي» (212/2).

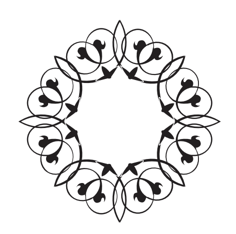
(31) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (519/22).

(32) «المجموع» للنووي (500/3).

الجسد بالسَّهر والحُمَّى، لذلك لا يقتصر حكم أدائه على مسجدٍ خاصٍّ يُقيمُ فيه الإمامُ الأعظم أو نائبه القنوتَ، كما لا يختصُّ بلد دون بلد، ولا يلزم فيه إذن الإمام الحاكم، إذ القنوت شرع تعبديٌّ عامٌّ، والأصل في أفعال النَّبيِّ ﷺ العموم لجميع المسلمين ما لم يرد دليلُ التَّخصيص، وقد دلَّ قولُه ﷺ على هذا الأصل من العموم بصيغة الطَّلب: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[33]، لذلك لا يجوز العدول عن هذا الأصل بإضافة تخصيصٍ أو تقييدٍ أو شرطٍ أو وصفٍ زائدٍ إلاَّ بدليلٍ شرعيٍّ أو مُسوِّغٍ مقاصديٍّ، وإلاَّ كان الوصف الزَّائد بدعةً إضافيَّةً، إذ لم يكن من فقه الصَّحابة رضي الله عنهم أن اعتبروا القنوت من خصائص الإمام الحاكم ولا أنَّه مُقيَّدٌ بمسجده، وقد ثبت عنهم ـ من غير خلافٍ يُعلَم ـ سواء ممَّن رَوَوْا أحاديثَ قنوتِ النَّازلة أو من غيرهم رضي الله عنهم أنَّهم يقنتون في الصَّلوات المكتوبة وبالأخصِّ صلاة الصُّبح من غير توقُّف على الإمام الحاكم أو إذنه فكان ذلك منهم إجماعًا عمليًّا.

علمًا أنَّ القول بخصوصيَّة قُنوت النَّوازل مُتعلِّق بالإمام الأعظم إنَّما هو من مفردات الحنابلة في إحدى الرِّوايات عن الإمام أحمد رحمه الله[34]، وله وجه صحيحٌ إذ يمكن حمله على من يريد أن يُفرِّق جمعَ المسلمين ويحدث الإضطراب في صفِّهم بالرَّأي الفردي ـ تعنُّتًا ـ لتحدِّي الإمام والجماعة: فيُشترط إذن الإمام أو نائبه لقطع سبيل منتهزي فرص قنوت النَّوازل للحطِّ من شأن الحاكم، والتَّهوين بأعوانه المسؤولين، والمسيس بأعراضهم، وحشر عامَّتهم فيمن يستحقُّون اللَّعن والذَّمَّ والشِّدَّةَ، وتأليب النَّاس عليهم، ونحو ذلك من صيغ الأدعية المنافية للأخلاق ولأصول الاعتقاد الصَّحيح لإدخال البلاد في الفتنة، لذلك كان إذن الإمام مشروطًا في حدود هذه المقاصد من إحلال الاستقرار الأمنيِّ، ودفع الشَّغب والاضطراب عن الأُمَّة خدمةً للعباد والبلاد.

والعلمُ عند اللهِ تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.



(33) أخرجه البخاري (605)، من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(34) «الإنصاف» للمرداوي (2/175).

الأديب المصلح
محمَّد الطَّـاهر التليلـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(1328هـ ـ 1424هـ)

محمد طالبي
طالب في مرحلة الماجستير

الفرع الأوَّل . اسمه ونسبه ومولده:

أوَّلاً ـ اسمه ونسبه:

هو محمَّد الطَّاهر بن بلقاسم بن الأخضر ابن عمر بن أحمد بن قاسم بن أحمد التّليلي الفرياني[1]، ولقد اشتهرت أسرة الشَّيخ بلقب: «التّليلي»، وهو نسبة إلى أولاد تليل، وكلُّ منسوب إليها يسمَّى «تليلي».

ومن هنا سمِّي وعُرِف شيخنا بمحمَّد الطَّاهر ابن بلقاسم التّليلي[2]، وقد ذكر الشَّيخ أنَّ جدَّ الأسرة «تليل» يتَّصل عمود نسبه وأصل شجرته بالخليفة الثَّالث[3] عثمان بن عفَّان رضي الله عنه.

ثانيًا ـ مولده:

وُلِد التّليلي في بلدة قمار، عند منتصف اللَّيلة السَّادسة من شهر ذي الحجَّة، أي قبل عيد الأضحى بأربعة أيَّام، سنة 1328هـ من هجرة النَّبيِّ المصطفى ﷺ الموافق لسنة 1910 ميلاديَّة[4].

الفرع الثَّاني . نشأته ووفاته:

أوَّلا ـ نشأته الأوَّليَّة:

لقد نشأ الشَّيخ محمَّد الطَّاهر بين أحضان

(1) هي نسبة إلى بلدة تونسية، تقع في الجنوب التونسي قرب مدينة قفصة، وقد ذكر الشَّيخ في ترجمته أنَّ أسرته انحدرت إلى سوف من هذه البلدة، والجدُّ الَّذي وصل إلى وادي سوف من هذه العائلة هو: أحمد التّليلي، انظر: «هذه حياتي»، محمَّد الطَّاهر التّليلي، (ص2).

(2) هي نسبة لأسرة «سيدي تليل»، الَّذين لهم زاوية بفريانة، قال الشَّيخ في ترجمته: «ما زالت ـ أي هذه الزَّاوية ـ حتَّى اليوم وبعد اليوم مشهورة بالعلم والتَّعليم وقد تخرَّج منها علماء كثيرون انتشروا في البلاد التونسيَّة وفي الشَّرق الجزائريِّ» اهـ. [«هذه حياتي» محمَّد الطَّاهر التّليلي (ص2).

(3) جاء في «مجلة العرب»: [(ج11 و12)، (س40) الجماديان سنة 1426هـ (ص739)]: «أنَّ الشَّيخ محمَّد الطَّاهر أصله عربيٌّ، من نسل الخليفة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه»، وهذا يخالف ما أثبتناه في الأصل وهو الصَّحيح استنادًا إلى ما ذكره الشَّيخ في ترجمته لنفسه ولما ذكره الدُّكتور أبو القاسم سعد الله نفسه في تقديمه لكتاب «مسائل قرآنيَّة»، حيث قال عن سيدي تليل الَّذي من نسله ولد الشَّيخ محمَّد الطَّاهر: «..والَّذي نسبَه النَّاسبون إلى الخليفة عثمان ابن عفَّان رضي الله عنه» فيكون ما جاء في تلك المجلَّة خطأ اقتضى التَّنبيه عليه.

(4) «هذه حياتي» لمحمد الطاهر التليلي (ص2).

أسرة عريقة شريفة، دينيًّا ودنيويًّا، وقد كان من عادة أهالينا بوادي سوف أنَّ الطِّفل إذا بلغ خمس سنوات يهيِّئه والده للدِّراسة في الكتاتيب[5] ـ خاصَّة إذا ظهرت عليه عوامل النَّجابة ـ، وهذا بالفعل ما وقع لشيخنا التّليلي.

قال رحمه الله: «... أدخلني والدي[6] بإشارة جدِّي لأبي[7] كتَّابَ القرية المعروف إذ ذاك بجامع الطَّلبة[8] وكان المؤدِّب فيه الشَّيخ المرحوم السَّيِّد أحمد بن حمّ الأخضر بن المحنّط، المتوفَّى حوالي سنة 1342هـ»[9].

وقد قضى الفتى التّليلي في هذا الكُتَّاب سنة كاملة، ولكن جدُّه الشَّيخ الأخضر ابن عمر أمرَ بإخراجه من الكتَّاب ليباشر تعليمه بنفسه على حسْب ما يراه الأنجح والأصوب.

قال الشَّيخ رحمه الله: «خرجت من الكتَّاب المذكور بأمر من جدِّي إذ لم يرَ فائدة في الاستمرار على هذه الطَّريقة المختارة عندنا[10] وأخذ هو على نفسه أن يباشر تعليمي مباشرة»[11].

ومن حسن حظِّ الفتى أنَّ جدَّه كان من حفظة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ـ ومن الَّذين جعلوا الدُّنيا وأشغالَها وراء ظهورهم ـ، فواصل معه في الحفظ إلى سورة الأعراف، وبعد ذلك لم يستطع الجدُّ مواصلة التَّعليم، قال الشَّيخ رحمه الله: «وعندها ـ بعد حفظ خمسة وأربعين حزبًا من القرآن ـ عجز الجدُّ كلَّ العجز عن إتمام ما كان يؤمِّله من تأديبي وتعليمي مباشرةً وعلى يده، فأشار عليَّ بالذَّهاب إلى كتَّاب الشَّيخ الطَّيِّب بن الحاج عليّ بن الزَّا[12]»[13].

ومن حسن حظِّ الفتى ـ أيضًا ـ أنَّ هذا المؤدِّب كان تقيًّا، ورعًا، عالِمًا، فقيهًا، له إلْمَام بمبادئ العلوم العربيَّة؛ فاستفاد منه كثيرًا، وواصل معه حِفظ القرآن وبقي على هذا سنة كاملةً، ومع ذلك لم ينقطع الفتى عن الشَّيخ الجدّ الَّذي كان يتفقَّد تَكراره وأعماله المرَّة بعد المرَّة، إلى أن عجز رحمه الله عن التَّفقُّد

(5) هذه الكلمة ونحوها كـ: «المُؤَدِّب»، كلُّها مشهورة بالدِّيار التُّونسيَّة، كما أخبرني بذلك الأستاذ محمَّد التِّجاني زغودة.

(6) هو بلقاسم بن الأخضر بن عمر والد شيخنا رحمه الله.

(7) هو الأخضر بن عمر بن أحمد جدُّ شيخنا رحمه الله.

(8) مازال هذا المسجد يحمل اسم «مسجد الطَّلبة» حتَّى اليوم، ولكن شهرته بغير هذا الاسم، فالكثير يسمِّيه «مسجد الغوَّار»، وهي نسبة لإمامه العيد غوري الذي تولَّى إمامته من سنة 1962م حتَّى أخذ تقاعده سنة 1996م، ثمَّ تطوَّع لإمامة المسجد (7 سنوات) بعد تقاعده، حتَّى أدركه العجز؛ فسلَّم الأمانة إلى أهلها في شهر جويلية (2003م).

(9) «هذه حياتي» محمَّد الطَّاهر التليلي (ص5) ـ مخطوط.

(10) وهي أنَّ الطِّفل يُلزم بتعلُّم الخطِّ والقراءة دون الحفظ.

(11) «هذه حياتي» محمَّد الطَّاهر التّليلي (ص6).

(12) هو الشَّيخ الطَّيِّب بن الحاج بن الزَّا، قضى أكثر عمره في تحفيظ القرآن وهو من تلاميذ الشَّيخ عمَّار ابن الأزعر، وكان يأكل من عمل يده؛ لأنَّه كان خيَّاطًا، وقد قرأ عليه الشَّيخ الطَّاهر القرآنَ من سورة الأعراف إلى البقرة، ثمَّ من البقرة إلى النَّاس، وعمل إمامًا للصَّلاة في مسجد يسمى «بيت الشَّريعة»، حتَّى عجز عن التَّعليم والإمامة؛ فقضى بقيَّة أيَّامه في داره، حتَّى توفَّاه الله في شهر ربيع الثَّاني من سنة 1389هـ عن عمر يناهز التِّسعين سنة، انظر: «مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختصُّ بسوف» لمحمد الطَّاهر التليلي (ص98 ـ99) ـ مخطوط.

(13) «هذه حياتي» محمد الطاهر التليلي (ص8).



تمامًا، عندئذ وجَّه الفتى وِجهته كلَّها إلى الشَّيخ الطَّيِّب، وكان مع ذلك يحضر دروس الشَّيخ محمَّد بن السَّائح اللقاني[14] وكذا دروس الشَّيخ العلاَّمة عمَّار بن الحاج عبد الله ابن الأزعر[15]، الَّذي قدم إلى قمار سنة 1342هـ، ولَمَّا كان للفتى ميول ورغبة إلى تعاطي العلوم العربيَّة بسبب التَّحفيز الَّذي وجده من جدِّه، لازم دروس الشَّيخ أحمد القا[16] رحمه الله في النَّحو خصوصًا.

وبقي الفتى على هذه السِّيرة إلى أن حان موعد الرَّحيل إلى الزَّيتونة طالبًا للعلم محقِّقًا لأمنية جدِّه، قال الشَّيخ رحمه الله: «وإلى هنا ينتهي بي عُمر الكُتَّاب والمحضرة وحياة العصا والمؤدِّب»[17].

قلت: ومن هنا تبدأ نشأته العلميَّة وتلقي العلوم والمعارف كما سيأتي.

ثانيا ـ وفاته:

فاضت روحه الطيِّبة مساءَ ليلة الأربعاء الثَّامن عشر من شهر رمضان المعظَّم، عام ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين من هجرة النَّبيِّ المصطفى ﷺ، الموافق للثَّاني عشر من نوفمبر عام ألفين وثلاثة ميلاديَّة، نسأل الله أن يتغمَّده برحمته وأن يلحقه بمواكب أسلافه من الأنبياء والمرسلين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسُن أولئك رفيقًا[18].

الفرع الثالث. نشأته العلمية[19] ورحلاته:

أوَّلاً ـ نشأته العلميَّة: يمكن تقسيم هذه النَّشأة العلميَّة إلى مرحلتين:

1 ـ **المرحلة الأولى:** نشأته في بلدته بين من

(14) هو محمد بن السَّائح اللقاني، ولد بنفطة، في تونس، سنة 1313هـ، وأصله من الطَّيِّبات، ودخل الزَّيتونة سنة 1334 هـ، وتخرَّج منها، ثمَّ درَّس في مسقط رأسه، ثمَّ عاد مدرِّسًا في الزَّيتونة، وله مجموعة هامَّة من الشِّعر الجزائري وأخرى من التُّونسي، وبقي مدرِّسًا حتَّى حضر أجله؛ فتوفي سنة 1388هـ. انظر: «مجموع مسائل تاريخية» محمد الطاهر التليلي (ص104) ـ مخطوط.

(15) هو الشَّيخ العلامة عمَّار بن الحاج عبد الله بن الأزعر القماري السُّوفي، طلب العلم في الزيتونة ودرَّس بمسقط رأسه بعد عودته حتى كون حركة إصلاحية عظيمة، ولكنَّه اصطدم بعائقين منعاه من مواصلة دروسه؛ الأوَّل يتمثَّل في الطُّرقية، والثَّاني: الاستعمار الفرنسي الغاشم، هذا الأمر الَّذي جعله يرحل إلى المدينة النبويَّة ليُدرِّس فيها قرابة العشرين سنة حتَّى توفي بها سنة 1389هـ. [«مجموع مسائل تاريخية» محمَّد الطَّاهر التليلي (ص89 ـ 92 ـ مخطوط).

وانظر ترجمته في «مجلَّة الإصلاح»: عدد (7) [التَّحرير].

(16) هو الشيخ أحمد بن محمد القا، ولد سنة 1305هـ الموافق لـ: 1884م، كان ضريرًا، وذكاؤه خارقا للعادة، قرأ على شيوخ قمار كالشيخ عمار بن الأزعر، وكان يحفظ أغلب متون الكتب المقررة، توفي رحمه الله ربيع الأول 1360هـ الموافق لـ: 1939م. [«مجموع مسائل تاريخية» محمد الطاهر التليلي (ص89 ـ 92 ـ مخطوط).

(17) «هذه حياتي» محمد الطاهر التليلي (ص11).

(18) «العلامة المصلح محمد الطهر التليلي» مجموعة من المختصين (ص22)، «قراءات في سيرته وفكره وآثاره» إعداد مجموعة من المختصين، شركة مزوار، الوادي، د ط، د ت، (ص22).

(19) جميع المعلومات عن نشأة الشيخ العلمية أخذتها من كتاب «هذه حياتي» ـ مخطوط.

عاصرهم من المشايخ ـ خاصَّة عمَّار بن الأزعر ـ، وتبدأ من السَّنة الخامسة من عمره، أي سنة (1333هـ ـ 1915م) إلى سنة (1346هـ ـ 1927م).

2 ـ **المرحلة الثَّانية:** نشأته في تونس، بلد العلم والعلماء وقتئذ، وتبدأ من سنة (1346هـ، 1927م) إلى سنة (1353هـ، 1934م)، وتعدُّ هذه المرحلة في حياة الشَّيخ رَحِمَهُ الله هي المرحلة الذَّهبيَّة، وكيف لا؟! وقد اتَّسعت فيها أفكارُه، وقوي فيها إدراكه، ونضج فيها عقله، ودامت سبع سنوات بالجامع الزَّيتوني بتونس.

ثانيًا ـ رحلاته:

سيرًا على سُنَّة الأوَّلين في الرِّحلة لطلب العلم، كانت وجهةُ الشَّيخ محمَّد الطَّاهر رَحِمَهُ الله إلى تونس الخضراء، بلد العلم والعلماء وقتئذ، والَّتي كانت قِبلة طُلاَّب العلم من قرية قمار خاصَّة، لذا اكتفى الشَّيخ بالرِّحلة إليها، ولم يرحل إلى غيرها[20]، اللَّهمَّ إلاَّ رحلته لأداء فريضة الحجِّ، ولم يذكر أنَّه التقى فيها بعلماء، فضلاً على أنَّه تلقَّى عنهم، خاصَّةً وأنَّها كانت في سنين متأخِّرة عن أيَّام الطَّلب، بل بعد عزلته الَّتي اختارها لنفسه... وكان حجُّه سنة 1398هـ، الموافق لـ: 1978[21].

(20) لم يذكر الشيخ في ترجمته لنفسه أنه رحل إلى غير تونس لطلب العلم، وهذا ما أكَّده لي الأستاذان: محمد التجاني زغودة وعبد الرحيم سعد الله ـ حفظهما الله ـ.

(21) «الفوائد المنثورة من مطالعاتي المبتورة» محمد الطاهر التليلي (ص61).

الفرع الرَّابع ـ شيوخه وتلاميذه:

أوَّلاً ـ شيوخه:

1 ـ شيوخه في بلدة قمار:

ـ أحمد بن حمّ الأخضر المحنط.
ـ الأخضر بن عمر بن ميدة.
ـ الطَّيِّب بن الحاج علي بن الزَّا.
ـ محمَّد بن البُريَّة الزُّبيري[22].
ـ محمَّد اللَّقاني بن السَّائح.
ـ محمَّد العزُّوزي بن الصَّادق الحُوحو.
ـ أحمد بن محمَّد القاَ.
ـ عمَّار بن عبد الله بن الأزعر.

وهؤلاء الثَّمانية هم أبرز شيوخه بقمار، فمنهم تعلَّم وعليهم أخذ، خاصَّة جدُّه الأخضر ابن عمر ميده، والشَّيخ عمَّار بن عبد الله الأزعر[23].

2 ـ شيوخه في جامع الزَّيتونة بتونس:

ـ محمَّد العربي الدرعي.

(22) هو الشيخ محمد بن أبي القاسم الزبيدي المعروف بـ (سي محمد بن البرية) ولد سنة 1226هـ الموافق لـ: 1874م، كانت قراءته وثقافته في بلدة قمار، لم تكن له رحلة في طلب العلم وإنما درس على شيوخ قمار كالشيخ المكي بن عزوز والشيخ الأخضر بن الحسين، وله عدة أعمال أدبية ولكنه ما أظهرها هو في حياته ولا ظهرت كذلك بعد وفاته، فقد توفي سنة 1368هـ الموافق لـ: 1949م. [«مجموع رسائل تاريخية» محمد الطاهر التليلي (ص80 ـ 86).

(23) هذا الإمام هو أبرز شيوخه وقد سبقت ترجمته باختصار، ومن أراد التوسع أكثر فعليه بالجزء الثاني من كتاب، أعلام من أرض النبوة، لمؤلفه حسن بن يعقوب إبراهيم الكتبي الحسني، ففيه ترجمة وافية له رَحِمَهُ الله.

- إبراهيم النيفر.
- عثمان بن المكي التَّوزري[24].
- محمَّد البشير النيفر.
- محمَّد العزيز النيفر.
- محمود بن قاسم ساكيس.
- محمَّد الزغواني.
- معاوية التَّميمي.
- محمَّد الصَّادق الشطِّي.
- حسن بن يوسف.
- عثمان بن الخوجة.
- الطَّاهر بن عاشور.
- محمَّد بن يوسف.
- علي بن الخوجة الأصهب.

هذه أسماء أبرز شيوخه بجامع الزَّيتونة، فمنهم المشتهر بالفقه؛ كالشَّيخ معاوية التَّميمي، والشَّيخ صالح العسيلي، ومنهم من اشتهر بجمع علوم القرآن والتَّفسير؛ كالمفتيين محمَّد الطَّاهر بن عاشور، ومحمَّد بن يوسف، ومنهم المشتهر بالأدب والتَّاريخ.

3 ـ شيوخه بتونس خارج جامع الزَّيتونة:

لم يكتفِ شيخنا بالدُّروس الَّتي كان يأخذها بجامع الزَّيتونة؛ لأنَّ همَّتَه في طلب العلم كانت أكبر من ذلك؛ لذا كان يلازم الحضور والمثابرة على محاضرات ودروس:

- الشَّيخ العربي الكبادي.
- الشَّيخ عثمان بن الكعاك[25].
- حسن حسني عبد الوهاب.
- الحسن بن شعبان.
- حمد بن عمار التَّوزري.

ثانيًا ـ تلاميذه:

لقد تتلمذَ على يد شيخنا جيش من المتعلِّمين في المدارس النِّظاميَّة بالعاصمة، وتقرت، وعنَّابة، والوادي، وخاصَّة بمدرسة النَّجاح التَّابعة لجمعيَّة العلماء المسلمين الَّتي تخرَّج منها ثلَّة من المثقَّفين هم اليوم عُدَّة البلاد في ميادين مختلفة من العلوم الدنيويَّة كالفيزياء وغيرها[26]، وأمَّا العلوم الدِّينيَّة فلا أعلم أحدًا برز فيها.

الفرع الخامس ـ عقيدته ومذهبه الفقهي:

أوَّلاً ـ عقيدته:

إنَّ ما وقفتُ عليه من مؤلَّفات الشَّيخ رحمه الله لم أرَ فيه صريح عبارةٍ، أو وُضوح إشارةٍ تُنمي عن انتسابه إلى فرقةٍ من الفرق أو جماعةٍ من

(24) انظرْ ترجمتَه في «مجلَّة الإصلاح»: عدد (12) [التَّحرير].

(25) هو عثمان بن محمد الكعاك المؤرخ الأكاديمي الإداري من أكثر المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في العصر الحديث ولد سنة 1321هـ الموافق لـ: 1903م بضاحية (قمرن) باحوز ـ تونس الشمالية تعلم بالمدرسة الصادقية، تحصل على عدّة شهادات كما تقلّد مناصب كثيرة لدى وزارة الشؤون الثقافية وغيرها وهو أول من كتب موجز التاريخ العام للجزائر 1344هـ، وأعظم أعماله: «الموسوعة العربية الكبرى»، وكذا «تاريخ الشمال الإفريقي»، وقد ألّف ما يناهز الأربعين كتابًا ، توفي رحمه الله سنة 1398هـ الموافق لـ: 1978م، انظر: «تتمة الأعلام للزركلي» محمد خير رمضان يوسف (2/44).

(26) «منظومات في مسائل قرآنية» محمد الطاهر التليلي (ص09).

الجماعات[27]، بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يوطِّنُ نفسه ويدعو غيره للعمل بالإسلام الصَّحيح، القائم على كتاب اللّه عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة نبيِّه ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا أنا فالَّذي يهمُّني هنا والَّذي أعتقدُه وأرجو أن ألقى اللّه به وأن يرضاه منِّي وأن يثبِّتني عليه؛ هو إخلاصٌ في اعتقادي أنَّ الدِّين عند اللّه الإسلام، وأنَّ من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه، وأنَّ اللّه أكمل لناديننا، وأتمَّ نعمته علينا بهذا الدِّين يومَ هدانا إليه ورضيه لنا دينًا، وأنَّ أصول هذا الدِّين وقواعده وأمَّهات مسائله وكلُّ ما يحتاجه المسلم من أمور الدُّنيا والآخرة كلُّها مستوعبة بوضوح وبيانٍ في كتاب الإسلام ودستوره العظيم ألاَ وهو القرآن العزيز الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[28].

(27) أخبرني ابنه عمر أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يحزنُه انشقاق البلد الإسلامي الواحد إلى فرق وأحزاب وجماعات، قلتُ: رحم اللّه الشيخ فإنّه يدرك حقًا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الروم]، فنسألُ اللّه - جل وعلا - أن يجمع قلوب المسلمين وكلمتهم على توحيد ربهم واتِّباع سنَّة نبيهم ﷺ، ومما يناسب ذكره هنا أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ردّ في ديوانه على الزّمخشري المعتزلي حين مدح كشافه بقوله:

إنّ التّفاسير في الدّنيا بلا عددٍ
ولم أر فيها مثل كشافي
إنْ رمتَ الهدى فالزم قراءتهُ
فالجهلُ كالدّاء وكشّافي كالشّافي

قال الشيخ في الرد عليه:

لو امَّحى منه ما قدْ ساء من أدبٍ
لكان أولى بإنصافٍ من الصَّافي
لولا اعتزالٌ وطعنٌ من مؤلِّفه
لقلتُ بحرٌ ولكن موردٌ صافي

الصافي: هو تفسير لإمام من الشيعة محمد مرتضى المعروف بالشيخ ملا محسن الكاشي (ت1090هـ) فيه جزآن، انظر: «ديوان الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي، (2/26).

(28) «الهيئة المرعية في الأذكار الشرعية» محمد الطاهر التليلي (ص60 - 61) - مخطوط.

ثانيًا - مذهبه الفقهي:

إذا نظرنا إلى الكتب الَّتي تتلمذَ عليها الشَّيخ من صباه على يد جدِّه وشيخه عمَّار ابن الأزعر إلى تخرُّجه من جامع الزَّيتونة بتونس، لا يشكُّ أحد أنَّه مالكيٌّ حتَّى النُّخاع، لكن من اطَّلع على كِتابه مسائل فقهية - هو مجموعة من فتاويه - ليَرَى أنَّه مالكيٌّ إذا كان الدَّليل من الكتاب والسُّنة يوافق مذهب المالكيَّة، وإلاَّ فإنَّه يدُور مع الدَّليل حيث دَارَ.

الفرع السَّادس - آثاره الإصلاحيَّة:

أوَّلاً - منشأ حياته الإصلاحيَّة:

قال شيخنا في ترجمته لنفسه: «والفضل الأكبر في تأديبي وتثقيفي وتربيتي التَّربية الإصلاحيَّة الدِّينيَّة الوطنية يرجع إلى الشَّيخ عمَّار بن الحاج عبد اللّه الأزعر، فهو الَّذي نشر الإصلاحَ والدِّين الصَّحيح في الأوساط الصَّحراويَّة بسوف، وعلى الأخصِّ بقمار، وتخرَّج عليه الكثير من طلبة قمار، علمًا وأدبًا وإصلاحًا وخلقًا؛ فكان حامل



لواء الجهاد العلمي والإصلاحي في سوف، وكنَّا جنودًا له ومن ورائه، **وكان شديد الوطأة على المبتدعين والطُّرقيِّين والقبوريِّين ومن لفَّ لفَّهم وجرى خلفهم**، وبتلك الشِّدَّة، وهاتيك الوطأة؛ ترك أثرًا إصلاحيًّا في قمار، لا يمكن أن يُمحى منها مهما طالتِ السُّنون وتعاقبت الأجيال، وكانت قِبلة قمار وعامَّة قُرى سوف عشَّ البدع والضَّلالات ووكْرَ الطُّرقيَّة الضَّالة المُضِلَّة؛ فكان الصِّراع في قرية قمار بين الحقِّ والباطل والإفساد طويلاً ومستمرًّا...»[29].

ثانيًا ـ أبرز مواقفه الإصلاحيَّة:

1 ـ من مواقفه الإصلاحية في المجال الدِّيني:

ـ سعيُه الحثيث المتواصل في الدَّعوة إلى اتِّباع الحقِّ ونبذ الابتداع، كما في رسالته الشِّعرية الَّتي بعث بها إلى أحد الشُّيوخ ينصحُه قائلاً:

أيُّهـا الطّـالب مَهـلاً
لا تُضف للجهلِ جهلاً
واسـألـنْ للـعلـمِ أهـلاً
إنَّـهـم أهــلُ اليقـيـنْ

إلى أن قال:

أيُّـهـا الرَّاعــي يراعِـي
أنْــت مَـســـؤولٌ وراعِ
فــاتَّـــقِ اللـــه وراعِ
وقـفـةً فـــي يــومِ ديــنْ

إلى أن قال:

لا تــكــنْ مخـتـرعًــا
شـــارعًـــا مُبــتـدعًـا
أو لـــــه مُـتــبـعًـــا
فتُرى في الخاسريــنْ[30]

ـ وقال في قصيدة أخرى تفكَّر فيها ماضيه القديم ودعوته النَّاس إلى الاستقامة على الكتاب والسُّنَّة ونبذ ما خالفها:

طريقةُ اللّه في القـرآنِ واضحةٌ
لو استقمتُم عليها نلتمُ الأرجـا
دعُوا الطَّرائق والسُّبل التي ابتعدت
عن السَّبيـل سبيلِ اللّه منتهجا
وجانبُوا ما استطعتم كلَّ محدثة
فمـن تجنَّبهـا فـي نعلـهِ فلجـــا
فكلُّ محدثة في الدِّين مرجعُها
إلى الضَّلال فويلٌ للذي دَلجا[31]

ـ حثُّه في دروسه ومنظوماته على حفظ القرآن الكريم كما قال في ديوانه:

ومن يحفظِ القــرآنَ كـان دليلَهُ
وحــجَّـتـه يـوم التَّكلم بـالحُجج
وكــان له سيفًـا حسامًـا لمنْ لـهُ
تصدَّى بإلقاء الشُّـكوك من الهمج
وكان لــه عـنـدَ التَّـفكر عبرة
وموعـظة تهديه إلى الطِّيب الأرج
وكــان له وقــتَ المشيب عبـادة
وذكرًا به تحيَا الموات منَ المهج[32]

(29) «هذه حياتي» محمد الطاهر التليلي، (ص13 ـ 14/ مخطوط).

(30) «ديوان الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/136 ـ 137).

(31) المصدر السابق (2/37).

(32) المصدر نفسه (2/27).

- توليه منصب الإمامة والخطابة بالمسجد الكبير[33]، وفيه رتَّب رحمه الله برنامجًا علميًّا تربويًّا نافعًا، أين جعل دروس التَّفسير ليلة الأحد وليلة الاثنين، ودروس الأحاديث النَّبويَّة ليلة الثُّلاثاء والأربعاء، ودروس الفقه ليلة الخميس والجمعة، وأمَّا الخطب؛ فإنَّها تدور حول التَّصفية والتَّربية أو كما عبَّر عنها الشَّيخ رحمه الله: «التَّخلِّي والتَّحلِّي»[34]، يعني التَّخلِّي عن العادات الجاهليَّة والتَّحلِّي بالأخلاق المرضيَّة، ومنهج التَّخلِّي والتَّحلِّي هو في الحقيقة ما يعبِّر عن كلِّ مواقف الشَّيخ الإصلاحيَّة.

2 ـ من مواقفه الإصلاحيَّة في المجال الاجتماعي:

وإليك أبرز مواقفه الإصلاحيَّة الاجتماعيَّة:

- سعيُه الدَّؤوب المشرق في جمع الكلمة واتِّحاد الصَّفِّ ونبذ التَّفرق بين أبناء الأمة الواحدة، وعلى هذا كان يربِّي تلاميذه بمدرسة النَّجاح، حتَّى إنَّه في سنة 1950م، وبمناسبة ختم الدُّروس كتب قصيدةً غايةً في الإبداع دعَا فيها إلى جمع الكلمة ووحدة الصَّفِّ؛ فقال:

ولتسمعُوا قبلها نصحي ينبِّهكُم
فربَّ ناصح قوم نصحُه عذُبا
إنّي لأنصحُكم يا قوم فاتحدُوا
وطاردوا عنكم الأحقادَ والغضبا
وكافحُوا كلَّ شيطانٍ يفرِّقكُم
بالعفو طوْرًا وبالهجرانِ إن دأَبا

(33) وكان ذلك في 20 محرم 1357هـ/الموافق لـ: 18 مارس 1938م.
(34) «هذه حياتي» محمد الطاهر التليلي (ص52).

داء التَّفرُّق ما حلت جراثمه
في الشّعب يا قوم إلاّ انحلَّ وانشعَبا
وجنِّبُوا عنكم حمراءَ فتنتِكم
فإنَّها النّارُ لا تُدنوا لها الحطَبَا
كفُّوا عن السُّوءِ واسعوْا في مفاهَمَة
لخيرِ أوطانكُم فالأمرُ قد حزبا[35]

لَمَّا كان صلاحُ المجتمع ينبعُ من صلاح الأسرة، وصلاحُ الأسرة قائم على صلاح الأمِّ الرَّاعية في بيتها، كان الشَّيخ ينصحُ ويوصي الفتاة بالتَّديُّن الَّذي هو سمة عفَّتها وصلاحها، وممَّا قاله في وعْظه لها:

إنّ التّدين حلية
أجمل بها عند الفتاةِ
فتدين دين محمَّد
دِين التَّمدن والحياةِ

إلى أنْ قال:

والأُسْوة الحسنى لها
في نسوةِ السَّلف الثِّقاتِ
وبأمَّهات المؤمنيـ
ـنَ في كلِّ شأنِ المؤمناتِ
في الدِّين أو في الخُلقِ أو
في الباقياتِ الصالحاتِ

وختمها بقوله فيمن اتَّصفت بما ذكره في أوَّل قصيدته:

وهي الَّتي يَسْمُو بها الـْ
إسلام في كلِّ الجهاتِ[36]

(35) «ديوان الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/10).
(36) «الدموع السوداء» محمد الطاهر التليلي (1/31).

وفي سنة 1935هـ كتب شيخنا لتلاميذه بكمبيطة قصيدةً حثَّ فيها على اقتفاء منهج السَّلف في النُّهوض بالمجتمع الإسلاميِّ، مع الاهتمام بتربية الفتاة أمِّ الغد؛ فقال:

يا ابـن الجزائـر لا تخـفْ
وانهضْ كما نهضَ السَّلفْ
فـالعـصْـر جـاء وقـدْ سَلفْ
يستنهِـضُ الأجيـالاَ

إلى أن قال:

واحرِصْ على أدبِ الفَتاةِ
واسبَحْ بها بحرَ الحيـاةِ
فهْيَ السَّفينةُ للنَّجـاةِ
إنْ أُحكِمتْ أَوصـالاَ
البـنـتُ أمّ فـي الـغـدِ
وبها الـجزائـرُ ترتـدِي
ثوبَ العُـلا والـسُّـؤددِ
مـن فـوقِهَـا سِـربـالاً
ولـدِينِهَـا فـي نـفسِهـا
في أهـلهـا فـي جنسِهَـا
أدبٌ يُـحيـطُ بـقدسِهـا
يستوعـبُ الأعـمـالاَ
فـالشَّعب إنْ لـمْ يحتـذِ
بفـتـاتِـه حذْوَ الـذِي
سـادَ القـبـائـلَ ذَا وذِي
لـم يطْعـمِ استـقْـلالا[37]

الفرع السَّابع ـ أهمُّ مؤلَّفاته:

1 ـ **منظومات في مسائل قرآنيَّة**، وهو الكتاب الوحيد الذي طبع.

2 ـ **مجموعة تشتمل على مسائل في رسم القرآن وضبطه.**

3 ـ **قواعد وكلمات في الثَّابت والمحذوف في القرآن الكريم.**

4 ـ **رسائل في رسم الألف في القرآن كما في المصحف.**

5 ـ **التَّعليقات البيانيَّة على منظومات مسائل قرآنية.**

6 ـ **قواعد البيان في الثَّابت والمحذوف في القرآن على رواية ورش** رحمه الله.

7 ـ **منظومات تربوية للمدارس الابتدائيَّة.**

8 ـ **سلَّم الوصول إلى ورقات الأصول.**

9 ـ **نظم متن الاستعارات للسَّمرقندي.**

10 ـ **ديوان الدُّموع السَّوداء.**

11 ـ **شواهد الكلمات العاميَّة من اللُّغة العربيَّة الفصحى.**

12 ـ **بدائع الجنان واللِّسان في غريب الألفاظ ومسائل القرآن.**

13 ـ **زهرات لغويَّة من الألفاظ الكتابيَّة لعبد الرَّحمان الهمذاني.**

14 ـ **إتحاف القارِي بحياة خليفة بن حسن القماري.**

(37) المصدر السابق (1/164 ـ 165).

كنوز مخبوءة في تراثنا الجزائري

ـ الجزء الثالث ـ

أبو عبد الرحمن محمود

التَّعريف بصاحب «الفُتيا»، والتَّعرُّف عليه:

لعلَّ القارئ الكريم تشوَّف إلى التَّعرُّف على صاحب «الفتيا» المنشورة في العدد (7) من «الإصلاح» الغرَّاء، وتطلَّع للوقوف على شخص هذا الشَّيخ الجليل الَّذي دبَّجت يراعُه تلك الإجابة القيِّمة، وترقَّب بلهف متى يكشف النِّقاب عن اسم هذا الفقيه من فقهاء الجزائر الأكابر!

ولإفادته ـ لا أفشي سرًّا ـ إذا قُلْتُ:

○ إنَّه صاحب «الحافظة الخارقة، والذَّاكرة العجيبة، والقريحة النيِّرة».

يقول عن نفسه:

«فما بلغت تسع سنين من عمري حتَّى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه، وكنت أحفظ معه «ألفيَّة ابن مالك»، ومعظم «الكافية» له، و«ألفيَّة ابن معطي الجزائري»، وألفيَّتي الحافظ العراقي في السِّير والأثر، وأحفظ «جمع الجوامع» في الأصول، و«تلخيص المفتاح» للقاضي القزويني، و«رسم الحُلل في نظم الدُّول» لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التِّلمساني، شاعر المغرب والأندلس في المائة السَّابعة، وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس، مثل ابن الشَّهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف ابن أبي عميرة، وابن الخطيب...

وحفظت «ديوان الحماسة»، وحفظت كثيرًا من رسائل سهل بن هارون، وبديع الزَّمان.

وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظت كتاب «كفاية المتحفِّظ» للأجدابي الطَّرابلسي، وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمداني، وكتاب «الفصيح» لثعلب، وكتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب بن السّكيت.

وهذه الكتب الأربعة هي الَّتي كان لها معظم الأثر في ملكتي[1].

♦ إنَّه صاحب...

○ «الهمَّة العالية»:

«فقد كان رحمه الله يلقي ثلاثة عشر درسًا في كلِّ يوم من أيَّام الأسبوع بدون انقطاع، وهي:

- «المفرد العلم في رسم القلم» (قُبيل صلاة الفجر).
- كتاب «الموطَّأ» للإمام مالك (إثر صلاة الصُّبح).
- «قطر النَّدى».
- التَّاريخ الإسلامي العام (كان يلقيه إملاءً).
- مفردات لغويَّة في غاية الأهميَّة.
- «البيقونيَّة».
- مقتطفات من الشِّعر الفحل، ومن الأمثال السَّائرة.
- أصول الفقه.
- «تحفة ابن عاصم».
- «المعلَّقات السَّبع».
- «الجوهر المكنون».
- تفسير القرآن الكريم (بين العشائين)»[2].

♦ إنَّه صاحب...

○ «العزَّة والشَّهامة والمواقف الشَّريفة:

«فقد حدث أن شغر منصب الإفتاء ببجاية سنة (1931م)، فأعلنت السُّلطات الفرنسيَّة شغور هذا المنصب؛ ليتقدَّم من يرى في نفسه القدرة والكفاءة، فاقترحَ عليه السَّيِّد ابن علي شريف في ترغيبٍ وإغراءٍ أن يتقدَّم للمنصب، وهو أجدر النَّاس به، ولابن عليّ شريف كلمته المسموعة عند فرنسا.

ولكن الشَّيخ رفض الاقتراح، وضرب بالمنصب عُرْضَ الحائط في شمم وإباء، وهو أشدُّ ما يكون حاجةً إليه في ذلك الوقت؛ لأنَّه فضَّل - على رغد العيش ورخاء الحياة في كنف الاستعمار - الشَّظف والعسر والجهد مع شعبه»[3].

وهو الَّذي خصَّه إمام النَّهضة العلميَّة بالجزائر بدعوات مباركات - بسبب مواقفه الشَّريفة - في رسالة كتبها، جاء فيها:

«فقد بلغني موقفكم الشَّريف الجليل العادل، فأقول لكم: الآن يا عمر!

فقد صُنْتَ العلوم والدِّين؛ صانك الله وحفظك، وعظَّمتهما؛ عظَّم الله قدرك في الدُّنيا والآخرة، وأعززتها؛ أعزَّك الله أمام التَّاريخ الصَّادق، وبيَّضت محياها؛ بيَّض الله محياك يوم القيامة، وثبَّتك على الصِّراط المستقيم»[4].

✍ من مشايخه عالمان محقِّقان:

قال رحمه الله: «وطُفت بحِلَقِ العلم في الحرم النَّبويِّ مُختبرًا، فلم يَرُقْ لي شيءٌ منها، وإنَّما غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتَّحقيق شيء، ولم أجد عِلمًا صحيحًا إلاَّ عند رجلين، هما شيخاي:

1 - الشَّيخ العزيز الوزير التُّونسي[5].

2 - والشَّيخ حسين أحمد الفيض آبادي الهندي[6].

فهما - والحقُّ يُقال - عالمان محقِّقان، واسعَا أفقِ الإدراك في علوم الحديث وفقه السُّنَّة...؛ فلازَمْتُهُمَا ملازمةَ الظِّلِّ.

وأخذت عن الأوَّل «الموطَّأ» دِرايةً، ثمَّ أدهشني تحقيقُه في بقيَّة العلوم الإسلاميَّة، فلازمت درسَه في فقه مالك، ودرسَه في «التَّوضيح» لابن هشام.

ولازمت الثَّاني في درسه لـ«صحيح مسلم».

وأشهد أنِّي لم أرَ لهذين الشَّيخين نظيرًا من

علماء الإسلام إلى الآن»[7].

✍ **ومن تلاميذ الشيخ** رحمه الله:

يقول نَجْلُ الشَّيخ رحمه الله:

«وسمعت مِنْ والدي أنَّه لم يَزَلْ يُؤْثِر من بين تلاميذه في الشَّرق والغرب اثنين، وهما: جميل صليبا البقاعي[8] في دمشق، وأبو مدين الشَّافعي[9] في تلمسان.

وقد حقَّق الله فراسة الوالد فيهما.

فرحل الأوَّل من دمشق إلى باريس في بعثة حكوميَّة والتحق بالسُّوربون، حتَّى حصل على الدُّكتوراه في الفلسفة، وهو اليوم في دمشق.

وهاجر الثَّاني إلى القاهرة، والتحق بجامعة فؤاد، حتَّى حصل على الدُّكتوراه في هذه السَّنة.

وما زال شيخهما يُؤْثِرُهما بالتَّنويه، ويصفهما بالشّفوف على أقرانهما»[10].

○ إنَّه محرِّر هذه الدَّعوات:

«اللَّهمَّ هب لنا توفيقًا ينير الطَّريق، وهدايةً تقي العثرات، وعنايةً تأخذ باليد إلى الحقِّ، ويقينًا يُزيل اللَّبْسَ في موطن الشُّبهات، وتأييدًا يثبت الأقدام في مواقع الزَّلل، وثباتًا يعصم من الفرار في ميادين الصِّراع بين الخير والشَّرِّ، وصبرًا يزع عن النُّكوص على الأعقاب، وشجاعة تفلُّ الحديد، وتنسخ آية هذا العصر الجديد، وبيانًا يفحم في مواقف الجدل، وعفَّةً تقهر الغرائز الجامحة، والشَّهوات العارمة، والمطامع المتعرِّضة بكلِّ سبيل، وأفضْ علينا لطفًا يصحب خفايَا الأقدار عند حلول المصائب، وأصحبنا ولايةً منك تخرجنا من الظُّلمات إلى النُّور، ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة].

اللَّهمَّ جنِّبنا الرَّأي، وزلزلة العقيدة، ودغل الضَّمير، وخيبة الرَّجاء، وطيش السِّهام، وجنِّبنا الخوف من غيرك، والجحود لخيرك، والبخل عليك برزقك، والرَّهبة من عدوِّك، والضَّلال في معرفتك، والهجر لكتابك، والشَّكَّ في وعدك، والاستخفاف بوعيدك، والدَّخل في الانتساب إليك، واجنبنا ـ وقومنا ـ أنْ نعبد هذه الأصنام الَّتي أضلَّت كثيرًا من النَّاس.

اللَّهمَّ ارزقْ أمَّة محمَّد التفاتًا صادقًا إليك، والتفافًا مُحكمًا حول كتابك، واتِّباعًا كاملاً لنبيِّك، وعرفانًا شاملا بأنفسهم فقد جهلوها، وتعارفًا نافعًا بين أجزائهم أنكروها، وبصيرةً نافذة في حقائق الحياة، فقد اشتبهت عليهم سبلُها الواضحة، وهبْ لهم من لَدُنْكَ نفحةً تصحِّح الأخوَّة السَّقيمة وتصل الرَّحم المجفوة، وتمكِّن للثِّقة بينهم، واتِّحادًا يجمع الشَّمل الممزَّق، ويعيد المجد الضَّائع، ويُرْهِب عدوَّك وعدوَّهم، ورجوعًا إلى هديك يُقرِّبهم من رضاك، ويسبِّب لهم رحمتك ويزحزحهم عن عذاب الخزي، فإنَّه لا يذلُّ مَنْ وَالَيْتَ، ولا يعزُّ من عاديت.

اللَّهمَّ واحفظ هذه العصابة الذَّائدة عن حماك، المعظِّمة لحرماتك، الواقفة بالمرصاد لكلِّ معتد عليها، النَّاصرة لدينك، والمدافعة ـ ولا منَّة ـ عن بيوتك، القائدة لرعيل الحقِّ في



سبيلك، فإنَّها كثيرةٌ بك، معتزَّة بعزَّتِك، قويَّة بتوفيقك، وإنَّها إنْ هلكت لم تُعبد في هذه الأرض»[11].

♦ إنَّه صاحب...

○ الكلمات المضيئة والحِكَم البليغة:

❖ الأمَّة الَّتي لا تبني المدارس؛ تُبنى لها السُّجون، والأمَّة الَّتي لا تصنع الحياة؛ يُصنع لها الموت، والأمَّة الَّتي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها؛ يعمل لها غيرها ما يضرُّها ويشقيها، والأمَّة الَّتي لا تحكُّ جسمها بظفرها فترفق وتلتذُّ؛ تحكُّها الأظفار الجاسية فتدمى وتتألَّم، والأمَّة الَّتي لا تغضب للعزِّ الذَّاهب؛ ترضى بالذُّلِّ الجليب، والأمَّة الَّتي تتَّخذ الخلاف مركبًا؛ يغرقها في اللُّجَّة، والأمَّة الَّتي لا تُكرم شبابها بالعلم والتَّثقيف؛ مضيِّعة لرأس مالها، والأمَّة الَّتي لا تجعل الأخلاق ملاكها؛ أمَّة تتعجَّل هلاكها، والأمَّة الَّتي تلد لغيرها؛ أمَّةٌ تلد العبيد، لا أمَّة تلد الأحرار الصَّناديد، والأمَّة الَّتي تعتمد في حياتها على غيرها؛ طُفَيْلِيَّة على موائد الحياة، حقيقةٌ بالقهر والنَّهر وقصم الظَّهر.

والحياة بلا علم؛ متاع مستعار، والوطن بلا علم؛ عورة مكشوفة، ونهب مقسم، سنَّة من سنن الله؛ كسنَّته في تكوير اللَّيل على النَّهار[12].

❖ ليس كلّ الحجَّاج يستحقُّون هذه التَّهنئة، ففيهم من حجَّ زورًا، وعمل منزورًا، ورجع موزورًا، وأهدى بدنةً؛ فكأنَّما قرَّب زرْزُورًا[13].

❖ إنَّ هذه الأحزاب؛ كالميزاب، جمع الماء كَدَرًا، وفرَّقه هدَرًا، فلا الزُّلالَ جَمَعَ، ولا الأرضَ نَفَعَ[14].

❖ إنَّ الاستعمار شيطانٌ، وإنَّ الشَّيطان لكم عدوٌّ فاتَّخذوه عدُوًّا، وإنَّ الاستعمار شرٌّ، ومحال أن يأتي الشَّرُّ بالخير، ومحالٌ أنْ يُجنى من الشَّوك العنب[15].

❖ العلم.. العلم.. أيُّها الشَّباب! لا يُلْهِيَنَّكُم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزابٍ، ولا داعية انتخابٍ، في المجامع صخَّابٍ، ولا يلفتنَّكم عنه معلِّل بسرابٍ، ولا حاوٍ بجراب، ولا عاوٍ في حزاب، يأتمُّ بغراب، ولا يَفْتِنَنَّكم عنه مُنْزَوٍ في خنقة، ولا مُلْتوٍ في زنْقَة، ولا جالسٍ في ساباط، على بساط، يحاكي فيكم سنَّة الله في الأسباط؛ فكلُّ واحدٍ من هؤلاء مشعوذٌ خلَّاب، وساحرٌ كذَّاب[16].

❖ إنَّ القوَّة - إذا لم يزنها العقل - ضعف، وإنَّ العلم - إذا لم تُحطْهُ الحكمةُ - جهل، وإنَّ الملك - إذا لم يحمِه العدلُ - زائل، وإنَّ سلاح الحقِّ من الحرير، يفل سلاح الباطل من الحديد، وإنَّ السِّيادة ليست حسنًى ولا زيادة، وإنَّما هي استعباد، يبغضه العباد وربُّ العباد، ويا ويح الأقوياء من غضب الله! وغضب المستضعفين من عباده![17].

❖ ويح المسلمين!.. يولد مولودهم، فإمَّا أن يهمل ولا يُعلَّم - وهذا هو الأكثر -؛ فيستقبل الحياة بلا دين ولا دنيا، وإمَّا أن يعلَّم هذا التَّعليم الشَّائع؛ فيجمد وتخمد فيه جذوة الإسلام، وإمَّا أن يسلك به المسلك الثَّالث؛ وهو التَّعليم الأوربِّي أو المطبوع بالطَّابع الأوربِّي؛ فيلحد ويحتقر آباءه وأمَّته ودينه ولغته ووطنه، فمن للمسلمين؟![18].

❖ إنَّ العالم الدِّيني في الإسلام حارسٌ، والحارس إذا نام دخل اللِّصُّ، والعالم الدِّيني راعٍ، والرَّاعي إذا غفل هجم الذِّئبُ، والعالم الدِّيني رُبَّان، والرُّبَّان إذا لم يأخذ الحيطة؛ غرقت السَّفينة، والعالم الدِّيني قائدُ كتائب؛ فإذا عداه الضَّبط اختلَّت الصُّفوف وحلَّت الهزيمة[19].

❖ إنَّ هذه القلعة[20] لهي المعقل الأسمى والملاذ الأحمى لأصحابنا اليوم، فكلُّ راقصٍ صوفِيٌّ، وكلُّ ضاربٍ بالطّبل صوفِيٌّ، وكلُّ عابث بأحكام اللّه صوفِيٌّ، وكلُّ ما جنى خليع صوفِيٌّ، وكلُّ مسلوب العقل صوفِيٌّ، وكلُّ آكلٍ للدُّنيا صوفِيٌّ، وكلُّ ملحد في آيات اللّه صوفِيٌّ، وهَلُمَّ سحبًا.

أفيجمل بجنود الإصلاح أنْ يَدَعُوا هذه القلعة تحمي الضَّلال وتؤويه؟! أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملةً صادقة شعارهم: «لا صوفيَّة في الإسلام» حتَّى يدكُّوها دَكًّا وينسفوها نسفًا ويذروها خاويةً على عروشها؟![21].

❖ أيُّها الشَّباب!.. إنَّ الشَّباب نَسَبٌ بينكم ورَحِمٌ وجامعةٌ، ولا مُؤَثِّر في الشَّباب إلاَّ الشَّباب، فليكن بعضكم لبعض إمامًا، وليعلِّم المهتدون الضُّلاَّلَ.

دينكم ـ أيُّها الشَّباب ـ لا يفتننَّكم عنه ناعقٌ بإلحاد، ولا ناعٍ بتنقُّص.

وربُّكم ـ أيُّها الشَّباب ـ لا يقطعنَّكم عنه خنَّاس مِنَ الجنَّة والنَّاس.

وكتاب ربِّكم ـ أيُّها الشَّباب ـ هو البرهان والنُّور، وهو الفَلَجُ والظُّهور، وهو الحُجَّة البالغة والآية الدَّامغة، فلا يزهدنَّكم فيه زنديقٌ يُؤوِّل، وجاهل يُعَطِّل، ومستشرقٌ خبيث الدّخلة، يتَّخذه عضين، ليفتن الغافلين، ويلبس على المستضعفين![22].

○ إنَّه الإمام المبجَّل والفقيه الأديب كما شهد بذلك علماءُ وقتِه في المشرق والمغرب:

ففي سنة (1372هـ) حجَّ الشَّيخ (حجّ النَّافلة) وفي رجوعه مرَّ بدمشق، فما بلغ خبرُ وصوله إليها؛ حتَّى هرع العلماءُ والفضلاءُ ونُخَبُ الشَّباب للقائه وتهنئته.

«فكان في الطَّليعة عالمُ الشَّام الشَّيخ الورع بهجة البيطار، والأستاذ اللُّغوي الكبير عبد القادر المغربي، والشَّيخ الفاضل زين العابدين ابن الحسين التُّونسي، وجماعة من أفراد عائلته، والشَّيخ الماجد محمَّد الدقر، والأمير سعيد الجزائري وجماعة من أمراء العائلة، والدُّكتور أحمد الشَّريف التُّونسي، والدُّكتور محمَّد المبارك ابن الشَّيخ المبارك الجزائري العالم اللُّغويّ الشَّهير، والأستاذ اللُّغوي البحَّاثة عبد اللّه القليقلي، والمؤرِّخ الكبير الأستاذ عزَّة دروزة.

وزارنا من تلامذة الأستاذ الأوفياء؛ الدَّكاترة: جميل صليبا، والمحايري، وروماني، والأستاذ نسيب البكري[23]، ووفد من حلب.

ومن زوَّار الأستاذ الكثيرين؛ أذكر الشُّيوخ: ناصر الدِّين نوح الألباني المحدِّث السَّلفي، وعبد الرَّحمن الباني، وعزّ الدِّين التَّنُوخي، عضو المجمع العلمي.

ومن الأساتذة: فاتح الكتَّاني، والدُّكتور

يوسف العش، وشاعر النَّجَف الأستاذ أحمد الصَّافي، والشَّيخ تقي الدِّين الهلالي، وأخوه المدرِّس بباكستان.

ومن الشُّبَّان العاملين في حقل الحركات الإسلاميَّة الأستاذ زهير الشَّاويش، وكثير من رفاقه من شبَّان سوريا وشرقي الأردن.

ومن البارزين في حقل الاقتصاد سعيد الأوبري، وعدنان التِّلمساني.

وكثير غير هؤلاء...»[24].

❖ ويقول الشَّيخ محمَّد بهجة البَيْطَار رحمه الله في رسالةٍ بعث بها إليه:

«ما ذكرتك مسرَّة في نفسي، أو في مَلإ من قومي، إلاَّ وذكرْتُ معك الدِّين الخالص، والعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، والأدب الجمّ، والرِّعاية التَّامَّة للإخوان، ونشر الثَّقافة الصَّحيحة بين طبقات المتعلِّمين، وما زلنا نعطِّر المسامع والمجامع بما منَّ الله تعالى به علينا - بعد وفاة شيخينا علاَّمتي الشَّام: البيطار والقاسمي - رحمهما الله - من الأخذ عن شيخينا عالمي المغرب العربي...[25] حفظهما الله، وأبقاهما ذُخْرًا وفخرًا للعرب والمسلمين.

ولقد كنَّا نجلس السَّاعات الطِّوال من ليلٍ ونهار، ونحن مقبلون على هذين العَلَمَيْن، وهما ينثران على مسامعنا من دُرَرِ المباحث العاليَة، والمطالب الغاليَة، ما يُعدُّ لبّ اللُّباب في كلِّ علمٍ وبابٍ، بَلْهَ الدّلالة على الكتب النَّفيسة، والنَّقل عنها بضبطٍ وإتقانٍ، والتَّعليق عليها من دون رجوع إليها، حتَّى لَنَشْعُرُ كأنَّنا أمام دائرةِ معارف؛ حَوَتْ مِنْ كلِّ شيء أحلاه وأغلاه»[26].

❖ ويقول الدُّكتور شكري فيصل رحمه الله:

«كنت أتردَّدُ على المكتبة العربيَّة في دمشق، أشهر مكتبات دمشق، وكان منتداها مجمعًا لرجال الفكر والعلم والأدب، ومُلتقى للبارزين من العلماء والفقهاء وأصحاب الثَّقافة الإسلاميَّة، وكنت أغشاها في صحبة خالي المرحوم المحدِّث والفقيه والكاتب الأستاذ محمود ياسين... فأتاح لي هذا التَّردُّد - ذات مرَّة - أن أشهد الشَّيخ يدخل من باب المكتبة، فيتلقَّاه من فيها بالإجلال ويتحدَّث فيميلون إليه بآذانهم ووجوههم، ويختار كتابًا من هنا، ويسأل عن كتاب من هناك، ثمَّ يكون الكتاب أو موضوعه مدار تعليق ونقدات، ويرتفع صوته بين اللَّحظة واللَّحظة بالرَّأي أو الرِّواية أو الشَّاهد أو النُّكتة، فإذا أنت تصيب من ذلك عِلْمًا، وتصيب من ذلك توجيهًا، وتصيب من ذلك نادرةً أو فائدةً أو إضاءةً.

ثمَّ لا يزال هو بصاحب المكتبة الأستاذ أحمد عبيد - أمدَّ الله في عمره - أو بأحد أخويه - أجزل الله لهما الرَّحمات - يستنزله هذا الكتاب أو ذلك، ويحدِّثه عن هذا المؤلِّف أو هذا النَّاشر، حتَّى يوشك صوت المؤذِّن أن يعلوَ من فوق الجامع الأمويِّ الكبير، فينصرف الشَّيخ ومن كان معه من زملائه وأصدقائه، أو كان وراءه من محبِّين وأصفياء، مخلِّفًا في نفوس كلِّ الَّذين شهدوه أو سمعوه ألوانًا من التَّقدير وضروبًا من الإعجاب، أكثرها له،

وكثير آخر من التَّعاطف والودِّ للبلد الَّذي جاء منه»[27].

❖ وقال بعض تلاميذه: «إنَّا كنَّا في مدرسة «تجهيز دمشق» جدّ مغتبطين بدروس الأستاذ، الَّتي كانت بعذوبة أسلوبها كالماء الزُّلال، بل السِّحر الحلال؛ كان الأستاذ يملي علينا القصائد الطِّوال لأرقى الشُّعراء في العصور الذَّهبيَّة، ويشرحها شرحًا لغويًّا وأدبيًّا وافِيَيْن، فكنَّا إذا رجعنا إلى دواوين الشُّعراء وشروحها؛ أخذنا العجب من صحَّة رواية الأستاذ ودرايته، وتحقيقه العلميِّ والأدبيِّ، وكنَّا نشعر أنَّنا أمام «دائرة معارف» حوت من كلِّ شيء أعلاه وأحلاه»[28].

❖ وقال الأستاذ الأديب عبد القدُّوس الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ في وصفه:

«ربعة القوام، أبيض اللَّون، مشرب بحُمرة، قد وخط الشَّيب فوديه، ووخط لحيته الخفيفة، وتجلَّى بريق الإيمان القويِّ، والصَّراحة والصَّرامة والكفاح في عينيه الدَّعجاوين، ووسرت خطوط الحوادث وأحداث الزَّمان ومصاولاتها إلى جبينه، وتهدَّج صوتُه نتيجة كفاحه الطَّويل المرير في سبيل إصلاح بلاده ورفعتها وإنهاضها وإنعاشها، وإعادة مجدها العربيِّ الإسلاميِّ الذَّاوي بأسباب الاستعمار والاستثمار.

ذلكم الرَّجل المنطيق، الَّذي يعيد لنا سيرة «سحبان وائل» فصاحةً وارتجالاً وسموَّ بيانٍ، هو علاَّمة الجزائر، بل المغرب، بل العرب والإسلام، رائد الإصلاح، والحجَّة في اللُّغة والدِّين والاجتماع،...، ونافخ الرُّوح القويَّة المشتعلة؛ لبعث الحماسة العربيَّة والإسلاميَّة والعلميَّة في أبناء الجزائر العرب المسلمين، وفاتح مائة وثلاثين مدرسة عربيَّة إسلاميَّة ما بين صُغرى وكبرى في أصقاع ذلك القطر العربيِّ الشَّقيق النَّائي، وهي المدارس الَّتي بلغ عددُ طلاَّبها ما يربو على الأربعين ألفًا من أبناء الجزائر»[29].

***

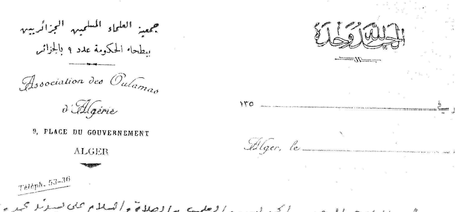
وأخيرًا؛ فقد حان الوقت ـ أيُّها القارئ الفاضل ـ وقد طال انتظارك وازداد شوقك، ونفذ صبرك ـ لتعرف أنَّ صاحب «الفُتيا» هو:

«الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي»

المتوفَّى سنة 1385هـ/ 1965م

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنَّاته.




الحمد لله وحده

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
ببطحاء الحكومة عدد 9 بالجزائر

Association des Oulamas d'Algérie
9, PLACE DU GOUVERNEMENT
ALGER
Téléph. 53-36

في 135
Alger, le ....

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

صورة أول المخطوط

صورة آخر المخطوط

(1) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (5/273 ـ 274).

(2) ظواهر في العبادات: ما كان ينبغي أن تكون (ص8 ـ 9) لأحمد بري.

(3) «مجلة الثقافة»: العدد (87)، (ص365).

(4) «مجلة الثقافة»: (ص280).

(5) توفي سنة (1338هـ).

(6) توفي سنة (1377هـ).

(7) «الآثار» (5/275).

(8) توفي سنة (1976م)، انظر ترجمته في «المستدرك على تتمة الأعلام» (3/23 ـ 24 و150)،

(9) توفي سنة (1958م)، انظر: «الأعلام» (7/198) للزركلي.

(10) جريدة «البصائر»: العدد (5) من السلسلة الثانية.

(11) جريدة «البصائر»: العدد (172) من السلسلة الثانية.

(12) جريدة «البصائر»: العدد (172) من السلسلة الثانية.

(13) جريدة «البصائر»: العدد (94) من السلسلة الثانية.

(14) جريدة «البصائر»: العدد (94) من السلسلة الثانية.

(15) جريدة «البصائر»: العدد (4) من السلسلة الثانية.

(16) جريدة «البصائر»: العدد (94) من السلسلة الثانية.

(17) جريدة «البصائر»: العدد (111) من السلسلة الثانية.

(18) جريدة «البصائر»: العدد (194) من السلسلة الثانية.

(19) «الآثار» (4/61).

(20) يعني التصوف.

(21) «سجل مؤتمر جمعية العلماء» (ص31).

(22) «الآثار» (4/270).

(23) في الأصل: السكري! والمثبت من «الأعلام».

(24) «البصائر»: العدد (274)، من السلسلة الثانية.

(25) يعني الشيخ صاحب «الفتيا».

(26) «البصائر»: العدد (91) من السلسلة الثانية.

(27) مجلة «الثقافة» (ص166).

(28) المصدر السابق (ص76).

(29) مجلة «المنهل» (/70).



صَرْخَةٌ من غزَّة الجريحة

عمارة قسوم
عجمان . الإمارات العربية المتحدة

جَلّ المصابُ بأمةٍ فتفجّعَا ... قلبُ الجريح بغزّةَ وتصدّعَا

أبناءُ صهيونٍ طَغَوا وَتَجبَّروا ... فعتَوا فسادًا في البلاد مُروِّعَا

كم قدْ جنا هذا العدوُّ بأمَّة ... سفكَ الدِّماءَ و بالسَّلام تقنّعَا

أينَ السَّلام مِنْ أمَّةٍ تاريخُها ... يروي المآسيَ و السَّوادَ الأبشعَا

طُلَّتْ دماءُ المسلمين بغزَّةٍ ... يا خُسْرَ من قتلَ البريءَ وروَّعَا

قتَّلْتُمُ أبناءَنا وبناتِنا ... ونساءَنا وشيوخَنا والرُّضَّعَا

ظنَّ اليهودُ بأنَّ غزَّةَ قد هَوَتْ ... فرَأَوا ضِعافًا قد أراقوا أدمُعَا

لا والّذي كتبَ الهوانَ على العِدَى ... ورسَا لنا صِدْقَ اليقينِ ومنَّعَا

إنَّ الهزائمَ باليهود تلاحقَت ... والنَّصرُ آتٍ لا محالةَ مُسرِعَا

كتبَ الإلهُ على اليهود مذلَّةً ... إنّ القرآنَ لذُلِّهم قد أطلَعَا

وإذا اليهودُ اِسْتأسدت يومَ الوغَى ... فاعلم بأَنَّ زمانَها قد ودَّعَا

يا أهل غزَّةَ فاصبروا لمُصَابكم ... فنَبيُّكُم ذاق الأمَرَّ الموجِعَا

فتذكَّروا الأحزابَ يومَ تجمَّعوا ... حولَ المدينةِ والنِّفاقُ تربَّعَا

فتَحَالفوا وتواطَؤُوا وتطاولُوا ... فتخاذلُوا يومَ الكريهَةِ خُضَّعَا

والمؤمنونَ الصَّادقون لربِّهم ... ما زادهم إلاَّ يقينًا في الوَغَى

يا أهلَ غزَّةَ يا أسُودُ صمَدْتُمُ ... مِنْ مثلِكم يخشى العدوُّ ويفزَعَا

مسْرى الرَّسولِ دعاكُمُ فأجبتُمُ ... يا فوزَ مَن لبَّى النِّداءَ فأسرعَا

إن مِتُّمُ قَد مُتُّمُ بشهادةٍ ... يا فوزَ من نال الشَّهادة مرتَعَا



الصُّمود والعزَّة
لرَدِّ عُدوان اليهود على غزَّة

عبد المالك بن مبروك
إمام خطيب . تيزي وزو

بغزَّة خَطْبٌ يا أخيَّ جليلُ ... ودمْعٌ على سفْك الدِّماء يسيلُ

وقتْل وإرْهابٌ وهدْمُ مساجدٍ ... وغزْوٌ منَ المُستدمِرين مَهُولُ

فأمْسَت بلاد القدْس جرداءَ بلقعًا ... مزارعُ فيها أحرقَتْ وحقُولُ

خلتْ منْ بني الإنْسان فيها شوارعٌ ... كأنَّ بُيُوتَ المُسْلمين طلُولُ

فسُكَّانُها قدْ قُتّلوا شرَّ مَقْتَل ... أريقتْ دِماءُ القوم فهْي سُيولُ

نِساءٌ ثكَالَى قدْ فقدْنَ أحبَّة ... لهُنَّ بُكَاءٌ مرَّة وعَويلُ

فَغزَّةُ كانتْ في حِصَار وأهلُهَا ... جِياعٌ ومرْضَى ما هنالك مُعيلُ

«حماسٌ» و«فتحٌ» في نزاع وغفلة ... ودَيْدنُهم قالٌ هناك وقيلُ

فلمْ يشْعُروا حتَّى أغارَ عدوُّهُمْ ... وقدْ قرعتْ للحرب منْهُ طبُولُ

فيا مجْلسَ الأمْنِ اتق اللّهَ واسْتفقْ ... أصَابَكَ عنْ بطش اليهودِ ذُهُولُ

وكمْ تدّعي نصْرَ الضعيف مُحايدًا ... وهذا ادِّعاءٌ ما عليْهِ دليلُ

فهَذي بلادُ القدْس أضْحتْ فريسة ... تصول يهودٌ عنْدها وتَجولُ

كأنّي بكُمْ لمْ تسمعوا عنْ مجازر ... تُساقُ إليْها صِبْيَةٌ وكُهُولُ

سَكتَّ على الظلم الصَّريح سياسةً ... لأنَّك فِعْلاً للظلُوم خليلُ

ولو كنْت حَقًّا راعِيًا ومُدافِعًا ... لمِلْتَ مع المظلوم حيثُ يميلُ

فيا قومَنا عُذرًا إليْكُمْ فإنَّنا ... عَجَزْنَا وسيْفُ العاجزين كَليلُ

وإنْ نـكُ قـصَّرْنا بـشيءٍ نُطيقُـهُ ... فـأفّ وعُـذرُ المُـذنبين ثقيـلُ

وكيْفَ يَطيبُ النَّوْمُ والأكْلُ عنْدنا ... وفي ساحَةِ الأقصى الطعامُ قليل؟

وكيْف التداوي والجريحُ مُضرجٌ ... وكيْفَ اعتزازٌ والشقيقُ ذليلُ؟

ونفـرحُ بالأبْنـاءِ دونَ تـأثُّر ... ونلْهو وطفْلُ القدْس فيهِ قتيلُ؟

فلسطينُ تشْكو مُنذ دهْر وترْتجي ... وقدْ عطبتْ للمُسلمين خُيولُ

وتبكي على الفاروق حُزْنًا وحسْرةً ... وترْثي صلاحَ الدين وهْي تقولُ

أعيدوا إلى الأقصى الجريح حريمَهُ ... وعنِّيَ أغلالَ اليهودِ أزيلوا

فقدْ ضاع مجْدي واسْتحلْتُ ذليلة ... وغيَّب نجْمي في السماء أفولُ

وقدْ كنْتُ بُسْتَانًا منَ الورْد في الرُّبَى ... فشَوَّهَ أزهارَ الربيع ذبُولُ

فلسطينُ يا أرضَ النَّبيِّينَ أبْشري ... فربِّي بقهْر المُعْتدينَ كفيلُ

فقدْ كُنْتِ في التاريخ للناس قبلةً ... ومسجدُك الأقصى إليه رَحيلُ

ولكِنْ على اللهِ العظيم توكّلِي ... ومَنْ يَتوكّلْ فالإلَهُ وكيلُ

ولَنْ يُعْجِزَ اللّهَ اليهودُ وإنَّما ... لهُ قَدَرٌ يُمْضيهِ ليْس يزولُ

فيا ربنا انْصُر دينَك الحقَّ وانْتقِمْ ... ليُرْوَى لنا بعْدَ الجفاف غليلُ

ودمِّر طغاةَ الأرْض في كلِّ بقعةٍ ... ليُشفَى منَ المُسْتضعفينَ عليلُ

جزى الله خيرًا منْ أعان بمالِهِ ... وأقوالِهِ والدَّعْمُ منْهُ وَصولُ

فكَمْ حُرَّة قدْ أرسلت بحُليِّها ... وترْجو ثوابَ اللّهِ وهْوَ جزيلُ

وكم منْ مُنَاجٍ ربَّه وهْو ساجدٌ ... وما خاب عبْدٌ للإله سَؤولُ

فرُحماك يا ربَّاه واجبُر كُسُورَنا ... فليس لنا عمَّا قضيْتَ بديلُ

ووحِّد جميعَ المُسلِمينَ على الهُدى ... فليْس إلى الأقصى سِواه سبيلُ

ولا تأخُذنَّا بالذُّنُوب فإنَّنا ... ضِعافٌ وبالتَّأييدِ منك نَصول

ومهْما بكيْنا لا يُفيدُ وإنَّما ... نُعَزِّي أخانا والعزاءُ جميلُ

على صاحبِ الإسْراءِ صلّوا وسَلّموا ... فمنْهجُهُ نحْوَ النَّجاةِ دليلُ

نظمْتُ على البحْر الطويل قصيدتي ... سهرْتُ وليْلُ الساهرينَ طويلُ

وَوَاسَيْتُ أهْلي في فلسطينَ قائلا ... بغزَّةَ خَطْبٌ يا أخيَّ جليلُ

أريد إصلاح سلوك ابني، ولكن...

أم عبد الرحمن

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله ومن اهتدى بهداه، أمَّا بعد:

حديثنا هذا موجَّه إليكِ أيَّتها الأمُّ الَّتي تمنَّيتِ بعد الزَّواج أن تُرزقي أطفالاً، ثمَّ جاء الطِّفل فكانت العنايةُ به كبيرة، وكان الرِّفق والحنان يفيضان عليه كلَّما أرضعته أو قُمت بتنظيفه، فكم سهرت لينامَ، وكم تألَّمتِ لوجعه، وكم... وكم...

لا زال ينمو، وحركته تزداد يومًا فيومًا حتَّى اشتدَّ عودُه، وقام يمشي، فكان نصحُك له، وتوجيهُه إلى الصَّواب، وتقويمُ سلوكه الخاطئ هو مسلكُكِ كلَّما تصرَّف تصرُّفًا خاطئًا، فما أن تكرَّرت أخطاؤُه وزاد اعوجاجُه ولم يُنْتَصَحْ حتَّى تكرَّرت منكِ الإرشادات وازداد حرصكِ على تعليمه وإلزامه باتِّباع الصَّواب.

لكنَّه كثير الحركة، كثير الصُّراخ، كثير اللَّمس، لا زال يكرِّر نفس الخطأ، فها هو قد كسَّر من جديد أواني المطبخ، ولطَّخ أثاث البيت بالأكل واتَّجه إلى أغراض والده فخرَّبها، وقطع أوراقًا مهمَّة، فلا زال يحرجك أمام الأقارب وأمام الضَّيف وفي المسجد حتَّى تغيَّر سلوكُكِ نحوَه وازداد غضبُك وأصبح الصُّراخ هو أسلوب خطابك مع طفلك ومعاتبتك إيَّاه يتخلَّلها الدُّعاء عليه، فإيَّاك وهذه المعاملة فقد تَهلكين وتُهلكين.

تَهلكين بأن تكتسبي خلقًا فاحشًا ببذاءة لسانك وتُهلكين إذا استجيب لك.

في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»(1).

فإنْ كان لابدَّ من الدُّعاء؛ فليكن له، لا عليه، فعوِّدي لسانك - وأنتِ غاضبة - الدُّعاءَ بما يعود بالخير على طفلك، كأن تقولي: «يعطيك الله الهدى والصَّلاح...»، وتذكَّري أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرُ مَنْ ربَّى وبه يُقتدى: «لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا»، وكان يقول: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا**»(2).

(1) رواه مسلم في «صحيحه» (7705).

(2) رواه البخاري (3056/6)، ومسلم (2321/15).

تُريدين إصلاح سلوك طفلك، لكن صار الضَّرب بالنِّسبة لكِ هو الحلُّ المجدي الَّذي يُؤتي ثمرتَه في حِينهِ، فيكفُّ الطِّفلُ عن اعوجاجه خوفًا من العقاب.

لا شكَّ أنَّ الضَّرب مشروع؛ لكن له شروط، منها أنْ لا يُلجأ إليه إلاَّ بعد أن تنفذَ كلُّ وسائل الإصلاح الأخرى، وأهمُّها - دون الملل منها - تكرار النُّصح والتَّوجيه بكلِّ رفقٍ ولين «**إنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ شَانَهُ**»[3].

إنَّ التّكرار بالنُّصح شُرِعَ في الصَّلاة الَّتي هي الرُّكن الثَّاني من أركان الإسلام، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِين وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ**»[4].

ها قد أُمرنا قبل الشُّروع في الضَّرب أن نُكرِّر النُّصح في كلِّ يوم خمس مرَّات لمدَّة ثلاث سنين في أهمِّ مسائل الدِّين، فهل تكرّر النُّصح في غيرها من المسائل قبل الشُّروع في الضَّرب ولو ثلاث مرَّات يوميًّا لمدَّةِ سنة كاملة؟!

فإذا لجأتِ إلى العقاب الجسدي، فَلْيَكُنْ غرضُكِ هو تعديل سلوك طفلك، لا نصرةً لنفسك؛ لأنَّ طفلك أغضبك، هذا حتَّى لا تتولَّد لديه أنَّه عوقب؛ لأنَّه ضعيف وأنت القويَّة، فينتظر الفرصة حتَّى يكبر ويشتدَّ عوده فيضرب إخوته الصِّغار؛ لأنَّهم ضعفاء ثمَّ أبويه بعد أن كبروا وضعفوا.

(3) رواه مسلم (6767).

(4) رواه ابن أبي شيبة وأبو داوود والدارقطني والبيهقي وأحمد، «الإرواء» (247).

وحين تمتدُّ يدك لضرب طفلك تمثَّلي معاوية ابن الحكم السّلمي رضي الله عنه يتكلَّم على لسان طفلك فيقول لك: «ما رأيت معلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا، فواللَّه! ما كَهَرَنِي ولا ضربني ولا شتمني»[5].

حينها ماذا كنتِ فاعلة؟!

تريدين إصلاح سلوك طفلك، ولكن والده لا يساعدك، بل يزداد غضبك وغيظك إذا حضر الأب، ووجَّه لك كلَّ اللَّوم على ما أحدثه الطِّفل من فساد وخرابٍ، ذلك أنَّ التَّقصير دائمًا حليفك وعدم الرِّعاية الجيِّدة هو النَّقد الدَّائم الموجَّه إليك.

حينها تقابلين تصرُّف الوالد بنقدٍ مماثل يتكوَّن بعده شجار بينكما، يكون سببه هذا الطِّفل الَّذي غمرتكم به السَّعادة حين وُلِدَ وما زالت هذه السَّعادة تتلاشى وهو ينمو حتَّى تكاد تزول.

أين أنتِ من آسيا بنت مزاحم، حيث ربَّت موسى عليه السلام في كَنَفِ فرعون الَّذي طغى وأين أنت من مريم ابنة عمران الَّتي قامت بتربية عيسى عليه السلام ولم يكن له أبٌ، فكان أن جعله اللَّه عزَّ وجلَّ من أولي العزم من الرُّسل.

عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ**» الحديث[6].

قد استرعاك اللَّه أولادك، فما ظنُّكِ أن يكون جزاؤُك عند ربِّك إذا أحسنت رعيك؟

هذا، وما أردت إلاَّ الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلاَّ باللَّه، وإليه المآب.

(5) رواه مسلم (5/537).

(6) رواه البخاري (5/3558)، ومسلم (12/1829).



حظُّ المؤمن من أخيه

• قال يحيى بن مُعاذ الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ليكن حظُّ المؤمن منك ثلاثًا:
إنْ لم تَنْفَعْهُ؛ فلا تَضُرَّهُ، وإنْ لمْ تُفْرِحْهُ؛ فلا تَغُمَّهُ، وإنْ لم تمدَحْهُ؛ فلا تَذُمَّهُ».

[«وفيات الأعيان» (6/167)]

المـُروءة

• رُوِيَ عن الفُضيل بنِ عِياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«أنَّهُ سُئِلَ عن الرَّجلِ الكَامِلِ التَّامِّ المُرُوءَة فقال: «الكَامِلُ مَنْ بَرَّ وَالديهِ، وَوَصَلَ رَحِمَهُ، وَأَكْرَمَ إِخْوَانَهُ، وَحَسَّنَ خُلُقَهُ، وَأَحْرَزَ دينَهُ، وَأَصْلَحَ مالهُ، وَأَنْفَقَ مِنْ فَضْلِهِ، وحَسَّنَ لِسَانَهُ، وَلَزِمَ بَيْتَهُ».

[«المُروءة وخوارمها» لمشهور حسن (ص38)]

متى تقع الفتنة؟

• قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«لا تقع فتنة إلاَّ من ترك ما أمر اللَّه به، فإنَّه سبحانه أمر بالحقِّ وأمر بالصَّبر؛ فالفتنة إمَّا مِنْ تَرْك الحقِّ، وإمَّا من ترك الصَّبر».

[«الاستقامة» (1/39)]

أثر السُّنَّة والعلماء في الأمَّة

• قال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«ما قلَّت الآثار في قوم إلاَّ ظهَرت فيهم الأهواءُ؛ ولا قلَّت العلماءُ إلاَّ ظهر في النَّاس الجفاءُ».

[«أحاديث في ذمِّ الكلام وأهله» (ص869)]

الحبُّ الصَّحيح لمحمَّد ﷺ

☯ قال الشَّيخ البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ:

«الحبُّ الصَّحيح لمحمَّد ﷺ هو الَّذي يَدَعُ صاحبَه عن البدع، ويحملُه على الاقتداء الصَّحيح، كما كان السَّلف يحبُّونه، فيُحيُون سُنَنه، ويَذُودون عن شريعته ودينه، من غير أن يُقيموا له الموالد، ويُنفِقُوا فيها الأموالَ الطَّائلة الَّتي تفتَقِر المصالحُ العامَّةُ إلى القليل منها فلا تَجِدُه».

[«آثار البشير الإبراهيمي» (341/2)]

عِظة للمعلِّمِين

عن مت البلخي، قال: أهديتُ لسفيان الثَّوري ثوباً فردَّهُ عليَّ؛ قلتُ له: يا أبا عبدِ الله لستُ أنَا ممَّن يَسمعُ الحديثَ حتَّى تَرُدَّه عليَّ؛ قال: علمتُ أنَّك ليسَ ممَّن يسمعُ الحديثَ، ولكن أخُوكَ يسمَعُ منِّي الحديثَ، فأخافُ أن يلينَ قَلبي لأخيكَ أكثرَ ممَّا يلينُ لغيرِه.

[«حلية الأولياء» (3/7)]

لمن نكتب؟

☯ قال العلامة ابن الوزير اليمني رَحِمَهُ اللهُ:

«.. لمن صُنِّفت لهم التَّصانيف وعُنيت بهدايتهم العلماءُ، وهم من جمعَ خمسةَ أوصافٍ: معظمُها **الإخلاصُ**، و**الفهمُ**، و**الإنصافُ**، ورابعها ـ وهو أقلُّها وجودًا في هذه الأعصار ـ: **الحِرصُ على معرفةِ الحقِّ** من أقوالِ المختلِفين، وشدَّةِ الدَّاعي إلى ذلك الحامل على الصَّبر والطَّلب كثيرا، وبذل الجهد في النَّظر على الإنصاف، و**مفارقة العوائد** وطلب الأوابد».

[«إيثار الحق على الخلق» (ص27)]

من صفاتِ الكريم

☯ قال الإمام ابن حبان رَحِمَهُ اللهُ:

«الكريمُ يَلِينُ إذا استُعْطِف، واللَّئيمُ يقسو إذا أُلطِفَ، والكريمُ يُجِلُّ الكرامَ، ولاُ يهينُ اللِّئامَ، ولا يؤذِي العاقلَ، ولا يُمازِحُ الأحمقَ، ولا يُعاشِرُ الفاجرَ، مُؤْثِراً إخوانَه على نفسِه باذلاً لهم ما مَلَك، إذا أُطلِعَ على رغبةٍ مِن أخٍ لم يدَعْ مكافأتَها، وإذا عرَفَ منه مَودَّة لم ينظُر في قلق العداوة، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء».

[«روضة العقلاء» (ص173)]

إلى الأخ كريم المصمِّم ـ وفَّقه الله ـ الطَّالب بمعهد الأنفوغرافيا، نشكره على كلماته اللَّطيفة وحسن ظنِّه بنا، كما نشكرُ له تواصله معنا عن طريق موقع «راية الإصلاح»، ونَعِدُه أنَّنا إذا احتجنا إلى مساعدته سنتَّصل به، إن شاء الله تعَالى، ووفَّقنا وإيَّاه إلى العلم النَّافع والعَمل الصَّالح.

أمَّا الأخت أمُّ همام ـ حفظها الله ـ الَّتي سألت عن الاشتراك السَّنوي في المجلَّة، فإنَّنا لم نفتح هذا الباب بعد، ولعلَّه سيكون في المستقبل إن شاء الله، وأمَّا فيما يخصُّ الشَّيخ نجيب جلواح؛ فله دروس يُلقيها في مسجده، وتجمع في ملخَّصات.

وأمَّا الأخ الطَّالب: س. عبد الرحيم ـ وفَّقه الله ـ، من مدينة سطيف، والأخت الكريمة أمُّ أسامة ـ وفَّقها الله ـ من منطقة البيرين بولاية الجلفة، فنشكرهما كثيرًا على تواصلهما.

وأمَّا الأخ الطَّبيب ـ سدَّده الله ـ من ولاية تيارت، الَّذي عبَّر عن سروره وابتهاجه بالمجلَّة، لقد أسعدنا ذلك كثيرًا، كما أنَّه اقترح علينا إضافة ركنٍ يتعلَّق بالمسائل الطِّبيَّة، فنعتذر له على عدم تمكيننا من تجسيد هذا الاقتراح في القريب العَاجل، والله الموفِّق.

كما نوجِّه الشُّكر العميم إلى الأستاذ علي بن الشَّيخ ـ حفظه الله ـ، إمامٌ بولاية عين الدَّفلى على كتابته المفيدة في العواقب الوخيمة والمآلات التَّعيسة للرَّوافض الطَّاعنين في سُنَّة النَّبيِّ ﷺ والمستهزئين بها، فجزاه الله خيرًا ونفع به.

نشكر جزيلاً الأخ محمَّد ميسومي ـ وفَّقه الله ـ من بلدية سيدي لعجال بولاية الجلفة، على مقاله المفيد بعنوان «هل كتب السُّنَّة تذبح عقول الأمَّة؟» ردَّ فيه على بعض الحاقدين على الدَّعوة السَّلفيَّة المباركة وعلى أعلامها ومصنَّفاتهم وكتبهم، بأسلوب رائقٍ سديد، فجزاه الله خيرًا، وجعلنا وإيَّاه من الذَّابِّين عن دينه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

كما نشكر كثيرًا الأخَ الفاضل عبد الصَّمد سليمان، من مدينة مغنيَّة بولاية تلمسان، على كلمته الجميلة الَّتي عبَّر فيها عن غبطته وسروره بمجلَّتنا، وحسن ظنِّه بالقائمين عليها، كما أرسل إلينا مقالة مفيدة بذل فيها جهدًا، فجزاه الله خيرًا.

وأيضًا نتوجَّه بالشُّكر العميم للأخت الكريمة أم جمانة نوال غوايزي من ولاية باتنة، على محاولتها الجادَّة، وهي عبارة عن مقال بعنوان: «تذكير النِّساء بخلق الحياء»، فنرجو لها التَّوفيق والسَّداد.

وأمَّا الأخ الكريم خالد بن علي ـ وفَّقه الله ـ من ولاية بومرداس، فإنَّنا نثمِّن جهودَه في الكتابة، ككتابته المسمَّاة بـ «قطوف من الهدي النَّبوي في تربية الأولاد»، وندعوه أن يواصل على هذا الدَّرب، وأمَّا ما يريد نشره في موقع «راية الإصلاح» فليرسله على بريد الموقع، والله من وراء القصد.

وممَّن تواصل معنا أخٌ لنا فاضلٌ اسمه علاء الدِّين معزوزي ـ سدَّده الله ـ مقيم باليمن، فله منَّا جزيل الشُّكر والامتنان، وبخاصَّة أنَّه أرسل إلينا مقالاً ذكر فيه بعض فوائد البسملة.

كما راسلنا أخٌ لنا في الله اسمه خضر ابن نور السّليم الملكي الإندونيسي ـ حفظه الله ـ وهو طالب في دار الحديث بدمَّاج باليمن، وبعث إلينا بمقالٍ لطيفٍ بعنوان: «منهاج التَّابعين في مخالفة المقلِّدين»، فنشكره على تواصله معنا، ونسأل الله له التَّوفيق في مسيرته في طلب العلم.

وأمَّا الأخ المكرَّم عبد الرَّحمن سقَّال ـ وفَّقه الله ـ من منطقة المرسى الكبير بمدينة وهران، فله منَّا الشُّكر الكثير لحرصه على الخير ونفع النَّاس، ونصحه عن طريق كتابته المعنونة بـ: «مقابر المسلمين بين الإهانة والتَّعظيم»، فجزاه الله خيرًا.

وأمَّا الأخت الكريمة خيرة بن عبد القادر ـ وفَّقها الله ـ فنشكرها على اهتمامها ومراسلتها لنا عن طريق البريد الإلكتروني للمجلَّة، وإنَّنا على استعداد لاستقبال كتاباتها، والله من وراء القصد.

وأمَّا الأخ العزيز عبد القادر خريف ـ حفظه الله ـ من منطقة سيدي خالد، بمدينة بسكرة، فنشكره كثيرًا على كتابته الطَّيِّبة المسمَّاة بـ «أضواء على مشكلة الإسراف»، ولعلَّنا ننشرها في فرصة سانحة، والله الموفِّق للجميع لكلِّ خيرٍ وسداد.

وأمَّا الأخ أبو عبد الله، من الدَّار البيضاء بالمغرب، والأخ مخلوف عبَّاس من منطقة أقبو بمدينة بجاية ـ وفَّقهما الله ـ فنقول لهما: إنَّنا سنحاول أن نُلبِّي طلبكما ولو بعضه، فإنَّ ما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه، ونسأل الله لنا ولهما العلم النَّافع والعمل الصَّالح.

كما لا يفوتنا في الأخير أن نتوجَّه بالشُّكر إلى جميع الإخوة والأخوات الكرام الَّذين راسلونا عن طريق موقع «راية الإصلاح» من داخل الوطن وخارجه، وأبدوْا غبطتهم وفرحهم وسرورهم بالمجلَّة، كما أبدى بعضهم ملاحظاته واقتراحاته ونصائحه، فللجميع منَّا جزيل الاعتراف والامتنان، وإنَّ ذلك يسرُّنا كثيرًا، فإنَّ أسعد النَّاس من سار على قاعدة: وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصَّبر؛ والله الموفِّق والهادي لكلِّ خير.



قواعد النشر في «المجلة»

1 ـ أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.

2 ـ أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.

3 ـ أن يُحَرَّر المقال بأسلوبٍ يحقق الغرض، ولغةٍ بعيدة عن التكلف والتعقيد.

4 ـ الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.

5 ـ أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.

6 ـ ألا يزيد المقالُ على خمس صفحات.

7 ـ أن يَذكر صاحبُ المقال اسمَه الكامل وعنوانَه ورقمَ هاتفه، ودرجتَه العلمية إن وُجِدَت.

8 ـ المقالاتُ أو البحوثُ التي لا تُنشر لا تُرَدُّ لأصحابها.